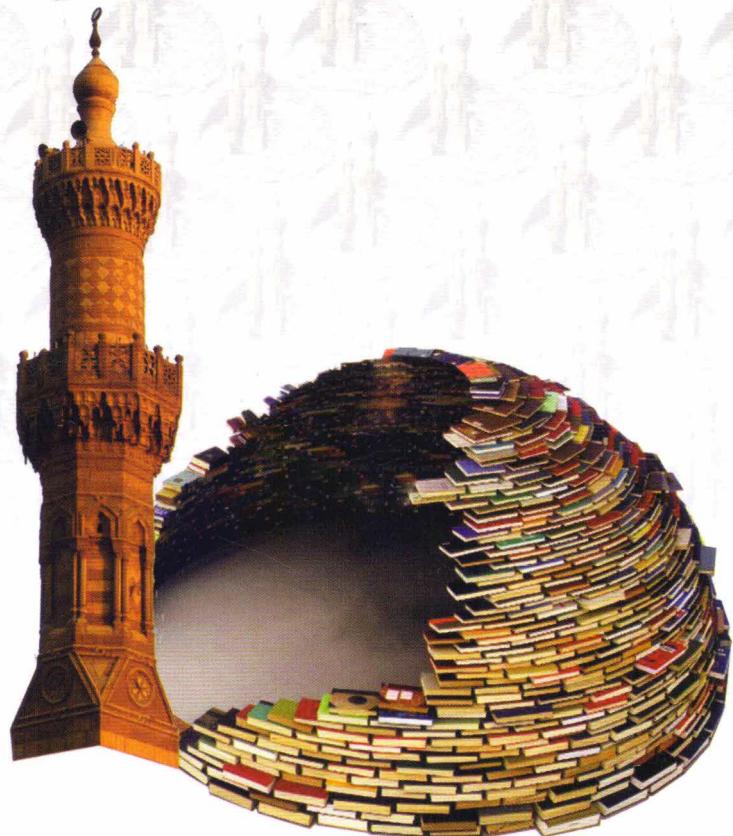




محمد الجواري

الجامعة الازهر بالكتاب الشفارة للهضبة العربية الموسوعية الحديثة





لم تبدأ مصر نهضتها في القرن التاسع عشر الميلادي صادفت كثيراً من النجاح لكنها صادفت من الفشل أكثر مما صادفت من النجاح، وبعد مائة عام على بدايات هذه النهضة أصبح من واجبنا أن نتصارح عن السبب الحقيقي في النجاح ، والسبب الحقيقي في الفشل بعيداً عن كل الأسباب المقولبة أو الملفقة التي استسهل أسلافنا اللجوء إليها في تشخيص الحالة التاريخية، وفي وصف النهضة التعليمية والعلمية والثقافية.

على سبيل المثال ، فإن من الصعب على الذين غرقوا في التفرقة بين عصر محمد علي من ناحية وبين عصر عباس الأول من ناحية أخرى أن يصلوا إلى حقيقة السبب ؛ لأنهم يغولون على قرارات أو توجهات فوقية ربما يكون لها أثر وقتي ، لكنه لا تصنع نهضة متدة كما أنها لا تعوق نهضة راسخة .

ولست أشك في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة السبب الجوهرى ، لكنهم لم يجدوا مصلحة في إذاعته، ولست أشك أيضاً في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة هذا السبب ، لكنهم استكروا أن يعترفوا به في ظل حرصهم على الابتعاد بمصر عن انتهائها الحقيقي إلى انتهايات أخرى تجعل لهم مكانة أرفع ومرجعية أقوى .

لكن مضيّ الزمن وتكرر التجارب المؤودة في النهوض أصبح كفيلاً للحق بأن يظهر وأن يعترف به وبدوره إيجاباً وسلباً ، ومن الجدير بالذكر أن الوصول إلى هذا الحق ليس بالأمر المعجز في ظل الفهم الحقيقي لآليات حدوث النهضة واستمرارها، وهو موضوع كبير لا يمكن لمثل هذه المقدمة ولا لمثل هذا الكتاب أن يدعي أنه يلم به إلماً كاملاً، لكن بعض أساسياته تبقى أكبر من أية محاولة للتتجاهل أو القفز عليها .

وأول أساسيات النهضة كما نعرف وكما نعلم وكما عرف العالم وسجل هو «الأصالة» ، فلن يمكن لنهاية مصرية أن تتحقق بلا مصريين وبلا هوية مصرية، وهذا هو جوهر القول الفصل بعد ذلك في نجاح النهضة واستمرارها واتصالها أو توقفها عند بداياتها أو حتى إرهاصاتها .



9 789773 115265 >

الجامعة الافتراضية
للهضبة العربية الموسوعية الحديثة

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى هـ١٤٣٧ - م٢٠١٦
بطاقة الفهرسة

الجوادى ، محمد

الجامع الأزهر باعثا لشارة النهضة الموسوعية العربية ،

دكتور / محمد الجوادى . ط ١ . المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، م٢٠١٦

. ٢٥ ص ، ٢٠١١

رقم الإيداع : ١٥/١٦٧٨٦ م

تمكـ: ٥ - ٥٢٦ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع محمد . القاهرة



القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د . مُحَمَّدُ الْجَوَادِيُّ

الْجَامِعُ الْأَنْهَرُ بِكِتَابِ الشَّرَائِفِ
النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُوسَوعَةِ الْحَدِيثَةِ

لِلشَّنَرِ وَالتَّوزِيعِ

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ
بِحَمْدِكَ رَبِّي وَرَبِّ الْعَالَمِينَ

إهداه

إلى الصديق الكريم

الدكتور حسام عبد الظاهر



(١)

لما بدأت مصر نهضتها في القرن التاسع عشر الميلادي صادفت كثيراً من النجاح لكنها صادفت من الفشل أكثر مما صادفت من النجاح، وبعد ماتي عام على بدايات هذه النهضة أصبح من واجبنا أن نتصارح عن السبب الحقيقي في النجاح ، والسبب الحقيقي في الفشل بعيداً عن كل الأسباب المقولبة أو الملفقة التي استسهل أسلافنا اللجوء إليها في تشخيص الحالة التاريخية، وفي وصف النهضة التعليمية والعلمية والثقافية.

على سبيل المثال ، فإن من الصعب على الذين غرقوا في التفرقة بين عصر محمد علي من ناحية وبين عصر عباس الأول من ناحية أخرى أن يصلوا إلى حقيقة السبب ؛ لأنهم يغولون على قرارات أو توجهات فوقية ربما يكون لها أثر وقتي ، لكنه لا تصنع نهضة متدة كما أنها لا تعوق نهضة راسخة .

ولست أشك في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة السبب الجوهرى ، لكنهم لم يجدوا مصلحة في إذاعته ، ولست أشك أيضاً في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة هذا السبب ، لكنهم استكروا أن يعترفوا به في ظل حرصهم على الابتعاد بمصر عن انتهائها الحقيقي إلى انتهاءات أخرى تجعل لهم مكانة أرفع ومرجعية أقوى .

لكن مضي الزمن وتكرر التجارب المؤودة في النهوض أصبح كفيلاً للحق بأن يظهر وأن يعرف به ويدوره إيجاباً وسلباً ، ومن الجدير بالذكر أن الوصول إلى هذا الحق ليس بالأمر المعجز في ظل الفهم الحقيقي لآليات حدوث النهضة واستمرارها ، وهو موضوع كبير لا يمكن لمثل هذه المقدمة ولا لمثل هذا الكتاب أن يدعي أنه يلم به إلماً كاملاً ، لكن بعض أساسياته تبقى أكبر من أية محاولة للتتجاهل أو القفز عليها .

وأول أساسيات النهضة كما نعرف وكما نعلم وكما عرف العالم وسجل هو «الأصالة» ، فلن يمكن لنهضة مصرية أن تتحقق بلا مصريين وبلا هوية مصرية ، وهذا هو جوهر

القول الفصل بعد ذلك في نجاح النهضة واستمرارها واتصالها أو توقفها عند بداياتها أو حتى إرهاصاتها .

(٢)

ومن حسن حظ تاريخ العلم والحضارة والتمدن والتحضر في مصر أن المثل الدال على ما أقول واضح وضوح الشمس، فحين ذهبت أولىبعثات المصرية إلى أوروبا اختار صاحب الأمر (أيا من كان) أن يرسل معها إماماً للبعثة يعني بالجانب الخلقي في سلوك أعضاء البعثة من الشبان دون أن تكون له سلطة الأستاذ في علومهم أو في دراساتهم، لكن سر النهضة الأكبر سرعان ما تخلى ، فأصبح هذا الإمام الذي كان الظن أنه صاحب وظيفة هامشية هو باعث النهضة ورائدها ، على حين لم يتحقق أي من أعضاء البعثة نفس المكانة في الريادة والبعث ، وإن كانوا قد أصبحوا مهنيين متازين ، أو علماء جيدly التكوين لكنهم ظلوا يدورون في فلك الحضارة التي ذهبوا إليها دون أن ينشئوا رؤية حضارية كتلك التي أنشأها الأزهري رفاعة الطهطاوي، وهنا ترفع الأصالة رأسها لتقول : إن النهضة لا تتحقق بدون البحث في الأصالة عنها ينميها ويشذبها ويهذبها وينذرها جذوراً وبذوراً على حد سواء .

(٣)

ربما تميز رفاعة الطهطاوي بميزات شخصية، وليس في ذلك شك، لكن الميزة الكبرى في رفاعة أنه نظر إلى الجديد بعين أصيلة لم تتنكر لذاته ، ولم تبدأ من الصفر، وهكذاتمكن من أن يحقق من الجديد ظلالاً ورافعة لمجتمعه من خلال التأمل والنقد والإعجاب والترجيح والتدبر والتعلم والمفاضلة والتوطين والتمكين والتطوير ، وفي أحيان قليلة الرفض والاستعلاء المبررين .

وعندما نبحث عن مفاتيح النهضة ، فإننا لا نستطيع أن نبدأ بشخص صاحب الدرر الكبير دون أن نبحث عن أستاذة الملة الذي بدأ الرفعة وبدأ الشراة .

(٤)

ومن حسن الحظ في تاريخ مصر وتاريخ نهضتها وتاريخ الأزهر وتاريخ رفاعة أنسا
نعرف منذ زمن مبكر أن الموسوعي العظيم الشيخ حسن العطار هو صاحب الفضل على
رفاعة وعلى مصر في كل ما حققه رفاعة وحققته مصر من نهضة .

لهذا السبب فإننا نبدأ كتابنا هذا بالحديث عن هذا الشيخ الذي كان أعلم أهل زمانه، كما أنه
وصل إلى أعلى منصب علمي في زمانه وهو مشيخة الأزهر، ثم ننطلق إلى رفاعة الطهطاوي ،
ثم إلى رعاة النهضة ومثلها العليا من خلال نموذجي وزير المعارف المتعاقبين علي مبارك وعبد
الله فكري اللذين يمثلان مناراتين مضيئتين من منارات النهضة في عصر هما بما قاما به على
المستوى الفردي والتنفيذي ، وبما خلفا من آثار في الحياة الثقافية .

وننطلق بعد هذا إلى دور ثالث من أدوار النهضة ، وهو دور الموسوعية بتجلياتها
المتعددة في التأليف والجمع والاستعراض والتحقيق والمعجمية والترتيب والتعريف
والفهرسة والنشر ، ونختار رجلين اتصلت أدوارهما الحقيقة بالانكفاء التام على هذا
التراث الأصيل الذي مثله الأزهر ومكتبه وتراثه الفكري ، وقد تناولاه من خلال
المناهج الحديثة القادرة على إعادة العرض وإعادة الإنتاج وقبل هذا إعادة التفكير وإعادة
التصميم، وقد كان الرجالان اللذان اختارناهما للتمثيل لهذه الصورة في صدر النهضة
فرسي رهان في أمور كثيرة ، وهما أحمد زكي باشا وأحمد باشا تيمور .

(٥)

إذا أجدنا قراءة تاريخ هذه النماذج البارزة التي تولت تشكيل بدايات النسيج المتن في
نهضتنا الحديثة ، فإن بوسعنا أن نفهم الفارق بين طريقين لانزال حائزين أمام بداياتهما ،
ونهايتهما وسنظل على الدوام حائزين مع كل تقدم يتحققه العلم .

فإما أن تكون ، وهذا هو الأسهل صدى فحسب ، وإما أن تكون ، وهذا هو الأصعب
لكنه الأثير والأخلد حريصين على التأصيل ومستندين إلى الأصالة .

إن قراءة نصوص علي مبارك ومن قبله نصوص رفاعة عن باريس وعن فرنسا لا تغنينا بالطبع عن فرنسا نفسها، وعلمهها وفنها وأدبها ، لكننا إذا قرأنا باريس بدون هذه النصوص فلن نربح باريس ، حيث هي ولن تكون عندنا إلا باريس التي حاول الخديو إيساعيل أن يستنسخها ، فنجح في استنساخ باريس التي كانت موجودة في وقته، لكنه لم ينجح في استنساخ باريس التي أنت بعد تركه الحكم ، فلا نحن نقلنا المترو (١٩٠٠) إلا في عهد السادات نقلأً رمزيًا، ولا نحن نقلنا إيفل (١٨٨٩) ، وإن كنا قد تفاخرنا ببرج ليس له من الأبراج إلا الاسم فحسب .

(٦)

وأحب أن أقول إن الثقافة والموسوعية التي أقصدها تشمل ثلاثة صور مختلفة :

الصورة الأولى هي الصورة القديمة للموسوعية والتي تعني ببساطة شديدة ذلك المعنى اللغوي المباشر أو الموجي من اتساع قاعدة الثقافة أو المعرفة أو التاج الثقافي بحيث تشمل أكثر من مجالين من مجالات التخصص ، وأقول أكثر من مجالين لأن شمولها مجالين فقط يجعل الإنسان يوصف بأنه كذا وكذا فحسب ، كأن يقول إنه محدث وفقيه، أو فليسوف وطبيب ، أو مفسر ومتكلم، أو طبيب وأديب .. وهكذا ، لكن المحدث الفقيه إذا برع أيضاً في التفسير أصبح خارج نطاق الحديث الزوجي عن تخصصين ، وهكذا تقاعد الناس أو تعارف الناس على أن يصنفوا المبرز في أكثر من تخصصين بأنه موسوعي ، ونحن نرى علامات الإعجاب ودلائله في تراجم الرجال حين تقرأ عن إمام من أئمة الفقه فنجد الم Yadīn التي برع فيها وهي تتالي في جمل معبرة من جمعه للتفوق في الفقه والأصول والتفسير والحديث والفلك ، أو جمعه للتفوق في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وهكذا .

وفي هذا الصدد يمكننا أن نجد أن ابن سينا مثلاً كان طبيباً وفليسوفاً وصيدلانياً وفلكياً وفزيقاً وجيولوجياً ، وأن الزهراوي كان جراحًا وطبيباً وصيدلانياً ونباتياً وهكذا .

ولعل نموذج القرن التاسع عشر من هؤلاء العلماء المسلمين كان هو الشيخ حسن

الطار الذي جمع التفوق في الفقه وأصوله والفلك والفلسفة والمنطق وعلم الكلام فضلاً عن الإمام بأديبات فنون أخرى كعلوم الطب.

الصورة الثانية من الموسوعية تتعلق بالمنهج الذي يفرض نفسه على صاحب الموهبة ، فلا يتناول الأمور من نظرة ضيقه يفرضها علمه أو يفرضها تخصصه أو تفرضها سلطته العلمية أو أستاذيته أو مرجعيته ، وإنما هو حين يتناول أمراً من الأمور بالبحث أو الكتابة أو التأليف يستعرض ما هو متاح من معرفة في مجاله ، ويتناول هذه المعرفة بمنهج يبحث عن وجوه الاتلاف ومظاهر الافتراق والتمايز ، و حدوث التواصل والانقطاع ، و يبحث أيضاً في الميدان الذي سبق الميادين الأخرى إلى هذا الفهم كما يبحث في الطريقة التي امتدت بها النظرة من ميدان إلى ميدان ، ولهذا تقرأ ما يكتبه صاحب المنهج الموسوعي فتحس بوحدة المعرفة من ناحية ، وتحس من ناحية أخرى بنوع من السيطرة على الكون المعرفي أو الفضاء المعرفي ، بحيث تتيح لك مطالعته أو متابعته أن تتدرب و ترثي قدرتك على فهم الحقيقة وعلى تصوّرها ، ثم على تصويرها وعلى التعامل معها .

ثم تأتي الصورة الثالثة وهي الصورة الغالبة على المصطلح الآن ومع أنها تبدو في أذهان كثرين مرتبطة بالصورة الثانية التي وصفناها لتوна ، فإنها شيء مختلف تماماً وهي موسوعية الإنتاج الفكري أو الموسوعية في الكتابة ، أو الكتابة الموسوعية ، وهي نتاج نوع من الكتابة يلتزم بإطارات منهجية (قابلة للاختلاف من موسوعية إلى أخرى ومن ميدان إلى آخر لكنها في النهاية محددة وواضحة ومقيدة) لكن هذا الالتزام لا يقف عند حدود ما يحب الكاتب أو المثقف أن يكتبه ، وإنما يمتد إلى وضع عمل موسوعي متكامل يجعل صاحبه من أصحاب الموسوعات أو يجعل مجموعة (أو جماعة) أصحاب المؤلفين من أصحاب الموسوعات ، وهنا ذكر بكل فخر علىاء العربية الكبار الذين وضعوا كتب الطبقات المبكرة ، والذين وضعوا كتب الخطط المبكرة ، والذين وضعوا المعاجم الكبرى . ومن الطريق أن أحد هذه المعاجم وهو القاموس المحيط سرعان ما أصبح اسمه وهو

«القاموس» على أهل المعاجم، وكلما أراد أساتذة منهجيون عتيدون في جمع اللغة العربية أو أشباهم أن يصححوا للناس كلمة القاموس ويستبدلوا بها كلمة المعجم منهبيين إلى أن القاموس لفظ يخص القاموس المحيط فقط لصاحب الفيروزآبادي، فإن أحدًا لا يستجيب لهم ولن يستجيب لهم، وكثيرًا ما قلت لهم إن الواقع يقول إن المعرفة نفسها كرمت الفيروزآبادي بأن جعلت القاموس دالاً دلالة واسعة لا على معاجم اللغة وحدتها وإنما أصبح دالاً على كل الموسوعات الصغيرة والمتخصصة في كل ما هو ممكن من ميادين التأليف الموسوعي، وهي حقيقة لا تتطلب مني أن أعدد عشرات الموسوعات المسماة قواميس في عشرات الميادين المعرفية.

(v)

هذا التأليف الموسوعي هو ما حمل روادُ كبارٍ من طراز الذين تتحدث عنهم في هذا الكتاب راياته المبكرة ، حيث نجد علي مبارك يعيد فن الخطوط ويحييه ، وحيث نجد عبد الله فكري يبدع في إدخال صور مبكرة من هذا التأليف في الثقافة العربية وفي مناهج التربية والتعليم (أو ديوان المدارس) على نحو ما فعل في الفصول الفكرية و الفوائد الفكرية . وهي كتب لم توصف في زمنها بالموسوعة لكنها تمثل بدايات مبكرة للموسوعة العربية بمعناها الحقيقي .

ثم نخطو خطوة أخرى على يد الأحمدين ، أحمد زكي ، وأحمد تيمور ، فنجد معجم الأمثال الشعبية وغيره عند تيمور ، ومعاجم أحمد زكي ، ونجد الفكرة الموسوعية في الإنتاج الفكري قد وصلت إلى حدودها الكفيلة بأن تأخذ دورها في الثقافة العربية الحديثة المعاصرة ، وهو ما شجع محمد فريد وجدي على سبيل المثال أن يضع وينشر دائرة معارف القرن العشرين على نحو استوفى الكثير جداً من مقومات دائرة المعارف أو الموسوعة ، وشجع على الانطلاق في العمل الجاد في هذا المجال على مدى أجيال بذلك جهوداً اكتمل بعضها ، وإن أجهضوا هم أنفسهم (بأنفسهم وظروفهم) كثيراً منها.

وكانت هذه النهضة الموسوعية مؤشراً دالاً على تأصل ونجاح النهضة العربية الحديثة.

(٨)

أدعوا الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل ، وأن يرزقني العفاف والغنى ، والبر والتقوى ، والفضل والهدا ، والسعادة والرضا ، وأن ينعم على بروح طالب العلم ، وقلب الطفل الكبير ، وإلهاه العجائز ، ويقين الموحدين ، وشك الأطباء ، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتنعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت ، وأن يحفظ على عقلي وذاكري ، وأن يجعل كل ذلك الوراثة مني . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكوه من ألم وتعب ووصب وقلق ، وأن يبني الشفاء والصحة والعافية ، وأن يقييلني من مرضي ، وأن يعفو عنى ، وأن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر . وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم لقاءه .
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها ، وشر الناس ، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت ، وأن ينفعني بما علمني ، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحنى العقل ، والمعرفة ، والمنطق ، والفكير ، والذاكرة ، والصحة ، والوقت ، والقدرة ، والجهد ، والمال ، والقبول وهو جل جلاله الذي هداني ، ووفقني ، وأكرمني ، ونعمني ، وحبب في خلقه ، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيناتي وهي - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتناهية فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد ، والشكر ، والثناء الحسن الجميل .

د. محمد الجوادي

الباب الأول

**رمزان للطليعة :
الأستاذ وأستاذه**

الفصل الأول
الشيخ حسن العطار
(١٨٣٥ - ١٧٦٦)

(١)

هو الشيخ حسن بن محمد العطار، وكان يلقب بأبي السعادات.

أعظم شيوخ الأزهر الكبار في القرن التاسع عشر، وهو واحد من كبار علماء الفقه الشافعي، ومن الرواد الأوائل الذين اتجهوا نحو إصلاح التعليم في الأزهر، يعد بحق رائداً من رواد النهضة، وهو الذي بث شرارةها في نفوس كثير من تلاميذه من جيل الرواد الذين كان أبرزهم رفاعة الطهطاوي، ومحمد عباد الطهطاوي وغيرهما، وهو صاحب شعار: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحواها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها». وصفه الجبرقى بأنه «قطب الفضلاء وتابع النبلاء ذو الذكاء المتقد، والفهم المسترشد الناظم الثائر، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظ وافر».

ينحدر الشيخ العطار من أصل مغربي، وقد ولد في القاهرة على أرجح الروایات في عام ١٧٧٦، وبعض المراجع تذكر أن ولادته كانت بعد هذا التاريخ بعامين.

(٢)

تلقي تعليماً دينياً تقليدياً، كان والده عطاراً، وكان يستخدم ابنه في حانوته، وكان الابن شغوفاً بالعلم، فتلقي تعليمه بالأزهر خفية في بادئ الأمر، ولما عرف والده بتفوقه أعاذه على الدراسة في الأزهر، وفيه أخذ عن كبار مشايخ الأزهر كالشيخ الأمير، والشيخ الصبان، وغيرهما حتى اكتسب منها صفات حبيبة، وعرف بنبوغه، وشهد له أساتذته بالعلم والفضل، ومنح الشهادة العالمية عن جداره واستحقاق.

وكان للشيخ العطار ولع شديد بسائر المعارف البشرية المتاحة في العصر الذي عاش فيه ، وقد ظل طيلة دراسته الأزهرية، وبعد تخرجه حريصاً على تقصي المعرفة وإرواء نهمه الشديد إليها، لهذا فإنه درس العلوم الهندسية والرياضية والفلكلورية، وتعمق في دراستها، ودفعه حب المعرفة والعلم إلى أن يمارس بنفسه التطبيق العملي للمعارف التي تعلمتها نظرياً، وفي هذا الصدد يروى أنه كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية، كما كان يتقن

الرصد الفلكي بالإسطرلاب، وقد سجل في مؤلفاته ما يدل على تمكنه من هذه الفنون والقدرات الخاصة في مؤلفاته.

وقد امتدت مهارات الشيخ العطار إلى علوم الطب والتشريح، وإلى علم الموسيقى التي كان يجيد فنونها أيضاً.

وعلى عادة المبرزين في ذلك الزمان كان الشيخ العطار يجيد التركية، كما كان له إمام بالفرنسية، وكان من أشد الناس حرضاً على الاطلاع على الكتب المغربية.

(٣)

كان الشيخ العطار فضلاً عن هذا كله أديباً وشاعراً معدوداً في طليعة الأدباء والشعراء في عصره، وكان يحضر دروسه في الأزهر الكثير من العلماء والطلاب، فكان إذا بدأ درسه ترك كبار العلماء من زملائه حلقاتهم وأقبلوا عليه مستزيدين من علمه الفياض، وما هو مشهور أن المستشرق الإنجليزي المعروف إدوارد وليم لين وعدداً آخر من المستشرقين كانوا من بين من كان يحضرون مجالسه.

وقد ظل العطار يمارس دوره العلمي كأستاذ قدير حتى ابتليت البلاد بالحملة الفرنسية (١٧٩٨م) وعندها غادر القاهرة إلى أسيوط، ثم عاد إلى القاهرة إبان الاحتلال، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وشاهد التجارب العلمية التي قاموا بها، ثم سافر إلى مكة للحج، ومنها إلى فلسطين، ثم رحل إلى الشام وأقام في دمشق، ثم سافر إلى إسطنبول وألبانيا، وبعد أن تخلصت مصر من الاحتلال الفرنسي (١٨٠١) عاد إلى القاهرة.

ولما تم إنشاء جريدة «الواقع العربية» المصرية في عهد محمد علي باشا كلف الشيخ العطار بالإشراف على تحريرها.

(٤)

ظل الشيخ حسن العطار أستاذاً متمنكاً مشغلاً بالعلم، رائداً لل الفكر، منارة للخلق الرفيع حتى اختير ليتولى مشيخة الأزهر (١٨٣٠)، بعد أن كان اسمه قد أصبح ملء السمع والبصر، وبعد أن كان قد وصل إلى المكانة التي يصفها القول المأثور: «إنه أعلم أهل زمانه»، وقد زاده المنصب حباً في العلم ومارسة له، وظل في هذا المنصب حتى وفاته. كان الشيخ حسن العطار يحارب ما يراه من ركود عقلي وفكري في أواسط علماء الدين

المعاصرين له الذين عاشوا ملتزمين بما تركه أسلافهم من أصحاب المتون والخواشي من المتأخرین، وكان يدعو إلى تغيير هذه العقلية ، وكان يرى أن النهضة الإسلامية لن تتحقق إلا بالعلوم والمعارف، والأخذ بأسباب التقدم والحضارة، وكان يقول: «إن بلادنا لا بد أن تغير أحواها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».

وظل العطار يتوجه بجهده نحو إصلاح الفكر، وذلك لاقتناعه بأنه بدون إصلاح الفكر لن يكون هناك أمل في التقدم، وعلى الرغم من كراهيته الشديدة للاحتلال الفرنسي، فقد كان معجباً بها وصلت إليه فرنسا من تقدم العلوم والمعارف.

(٥)

كان الشيخ العطار يكرر الدعوة إلى التجديد في مناهج التربية والتعليم، وكان في أدائه للأستاذية يتناول الموضوعات القديمة بعرض جديد وشيق وجذاب، وقد امتدت هذه الروح إلى مؤلفاته وكتاباته وتعليقاته على تفسير البيضاوي الذي كاد أن يكون مهجوراً في الأزهر.

وكان الشيخ العطار يطالب بإدخال العلوم الحديثة والعلوم المهجورة بالأزهر إلى مناهج الدراسة الأزهرية، وكان يطالب بدراسة الفلسفة، والجغرافية، والتاريخ، والأدب، والعلوم الطبيعية، وبالرجوع إلى أمهات الكتب العلمية، وعدم الاقتصار على المتون والخواشي المتأخرة.

وقد وجه الشيخ العطار تلاميذه إلى التجديد فيما يقومون به من كتابات أو دراسات حتى وإن كانت تتناول موضوعات قديمة، كما وجههم إلى التجديد في اختيار الكتب التي يدرسونها والمناهج التي يدرسون بها.

وهو الذي دفع تلميذه الأديب محمد عياد الطنطاوي إلى شرح مقامات الحريري بأسلوبه الأدبي البليغ، كما أنه هو الذي دفع تلميذه رفاعة رافع الطهطاوي لتدريس الحديث والسنّة بطريقة المحاضرات دون التقيد بكتاب خاص يقرأ منه، أو نص معروف يعتمد عليه، فكان هذا مثار إعجاب العلماء.

كذلك فإنه هو الذي رشح رفاعة الطهطاوي للسفر إلى فرنسا، ونصحه باستيعاب كل ما يمكن استيعابه من آثار الحضارة الفرنسية، وأشار عليه بتدوين كل ما يشاهده أو يعرفه

أو يسمع عنه، فكانت نتيجة هذه التوجيهات غير المعهودة ولا المسبوقة في ذلك الجيل أن قام الطهطاوي بتأليف كتابه «خلص الإبريز في تلخيص باريز».

(٦)

و على نحو ما أشرنا من قبل فقد برع الشيخ العطار في فنون النثر والشعر، كما برع في غيرها من علوم وفنون ، وكان له مثل معاصره عبد الله فكري أسلوبان متبنيان في الكتابة: كان يميل في الأمور العلمية والشؤون المألوفة إلى سهولة الأسلوب، والتخلص من السجع، والبعد عن التكلف، لكنه كان في الكتابة الأدبية حريصاً على الصياغة البلاغية التقليدية ، والسجع، والمحسنات البدعية.

أما شعره فقد تناول فيه شتى فنون الشعر المعروفة في زمانه، وبخاصة في مجالات الوصف والتهئة والمدح.

تشريف في شعره الوصفي بعض اللمسات الوجданية الرقيقة، على نحو ما يتجل في وصفه لجمال الطبيعة، فقد كان كثيراً ما يتغزل في جمال الطبيعة وجمال الحياة التي يعيشها أو يمر بها ناعياً على القدماء بكاءهم على الأطلال ويعيد شعره إرهاصاً يبزوج فجر جديد للنهاية الشعرية التي شهدتها الساحة الأدبية بعد ذلك على أيدي شعراء طلائع النهضة في العصر الحديث، وعلى رأسهم محمود سامي البارودي.

(٧)

وإذا أردنا نموذجاً من شعر الشيخ العطار فإننا ننقل للقارئ قوله في وصف متزهات دمشق:

ورج على باب السلام ولا تخط
ولا متزلاً أودي بمنعرج السقط
ملابس حسن قد حفظن من العط
ويسلق عن الأخدان والصحب والرهط
غيل سكارى وهي تخطر في مرط
بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

بوادي دمشق الشام جُزٌ بي أخا البسط
ولا تبك ما ييكي امرؤ القيس حوملا
فإن على باب السلام من البها
هناك تلقى ما يروقك منظرا
عرائس أشجار إذا الريح هزها
كساها الحيا أثواب خطر فدثرت

وقد أورد الجبرتي في تاريخه أبياتاً جميلة مؤثرة نظمها في رثاء الشيخ محمد الدسوقي (المتوفي سنة ١٨١٥ م) حيث يقول:

وحل بنادي جمعاً فتصدعا فلم يخل من وقع المصيبة موعبا مضى حادث يعقبه آخر مسرعا	أحاديث دهر قد ألم فأوجعا فقد جال فيما بين أعظم صولة وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما
ولم تره في غير ذلك قد سعى عن العلم كيما إن تُغرِّ وتخدعا فما أن لها يا صاح أمس مضيما وما مات مَنْ أبقي علوماً لمن وعى وقبيل بالإكرام مَنْ له دعا	سعى في اكتساب الحمد طول حياته ولم تلهه الدنيا بزخرف صورة لقد صرف الأوقات في العلم والتفقى فقدناه لكن نفعه الدهر دائم فحجزي بالحسنى وتوسج بالرضا

(٨)

خلف الشيخ حسن العطار مؤلفات عديدة تدل على سعة معارفه وثقافته، وقد شملت مؤلفاته علوم المنطق، والفلك، والطب، والكيمياء، والهندسة، والتاريخ، والجغرافيا، كما شملت الأدب، شعراً ونثراً، وذلك بالإضافة إلى أصول الفقه، وعلم الكلام، والنحو، والبلاغة، وكثير من الآثار التي تركها الشيخ العطار لاتزال للعجب العجاب مخطوطة في دار الكتب المصرية ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لنشرها إن امتد بي العمر ، وقد كنت شرعت في هذا من خلال مشروع كنوز القرن التاسع عشر.

- في أصول الفقه:

- «حاشية العطار على جمع الجواجم في أصول الفقه لأبي نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى»، طبعة ١٩٠٠ و ١٩١٣.

- في الأدب:

• ديوان العطار الذي يشتمل على الكثير من شعره.

- شرح كتاب الكامل للمبرد.
 - جمع وترتيب ديوان ابن سهل الأندلسى.
 - في المنطق وعلم الكلام:
 - «حاشية العطار على التهذيب للخبيصي»، ١٨٧٨.
 - «حاشية العطار على شرح تهذب المنطق والكلام لسعد الدين التفتازاني»، ١٩٢٧.
 - «حاشية العطار على شرح إيساغوجي في المنطق لأثير الدين بن عمر الأبهري».
 - «حاشية العطار على شرح زكريا الأنصاري على متن إيساغوجي في المنطق»، ١٩٢٨.
 - «حاشية العطار على كتاب نيل السعادات في علم المقولات للشريف البليدي».
 - «حاشية العطار على الجواهر المنتظمات في عقود المقولات للشيخ أحمد السجاعي».
 - «حاشية العطار على مقولات السيد البليدي»، طبعة مصر، ١٩١١.
 - «حاشية العطار الصغرى على الجواهر المنتظمات للسجاعي».
 - «رسالتان في علم الكلام»
 - «حاشية العطار على شرح العصام على الرسالة العضدية للإيجي».
- (٩)
- ونأتي إلى آثاره في علوم اللغة العربية :
- وللشيخ العطار في النحو:
- «حاشية العطار على شرح الشيخ خالد الأزهري لكتاب قواعد الإعراب لابن هشام النحوي»، طبعة ١٩٢٦.
 - «حاشية على شرح الأزهري على متن الأجرامية».
 - «منظومة العطار في علم النحو» وقد شرحتها تلميذه محمد العطار الدمشقي.
 - «حاشية على لامية الأفعال لابن مالك».
 - «الفوائد الجلية في اللغة العربية».
- وفي علم البلاغة:
- «شرح السمرقندية في علم البيان مؤلفها ابن القاسم بن بكر الليثي السمرقندى».

الأزهر باعثاً لشراة النهضة العربية

- وفي أدب المراسلات وما نسميه الآن : «التعبير الوظيفي» :
- «إنشاء العطار في المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط مما يحتاج إليه الخاص والعام».

(١٠)

ونأتي إلى آثاره في العلوم التي لم تكن شائعة في الأزهر في حينه :

- في الفلك:

- «رسالة في كيفية العمل بالإسطرلاب والربعين المقطر والمجيب والبساط (وهي آلات رصد فلكية)»، طبعات متعددة.
- «رسائل في الرمل والزايরجة (وهما طريقتان لاستطلاع معرفة الغيب)».
- وفي الطب:

- «الطب والتشريح».
- ثلاثة مقالات في الكي والفصد.
- نبذة في علم الجراحة.
- «راحة الأبدان في شرح نزهة الأذهان للأنطاكي».
- «حاشية العطار على رسالة الولدية للمرعشي».

- وله أيضاً:

- «حاشية العطار على شرح ملا حنفي على آداب البحث للعهد».
- «حاشية العطار على نتائج الأفكار».
- «تحفة غريب الوطن».

(١١)

كانت للشيخ العطار مشاركة في التاريخ والجغرافيا، وقد نقل عنه الجبرتي نصوصاً في كتابه المعروف باسم «مظهر التقديس بذهبة الفرنسيس»، وقد أشار في مقدمة كتابه إلى ذلك بقوله عن أحداث الحملة الفرنسية: «وكان من اعنى أيضاً بجمع تلك الأخبار قطب الفضلاء وتاج النبلاء صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار، فضممت قائمة من بعض منظومه ومشوره بحسب المناسبة إلى هذا السفر لينتظم معنا في سلك

حسن الذكر».

وقد وصفته دائرة المعارف الإسلامية . في مادة الأزهر . بأنه «كان رجلاً مستنيراً، اشتهر بعلمه، وكان أيضاً شاعراً ناثراً من أصحاب الأساليب».

ومن مدحوا الشيخ العطار بطرس كرامه الذي قال فيه لما قابله في مصر:

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك يا سولي ويَا أَرْبِي
والله ما سمعت أذنِي بما نظرت لدِيك عيناي من فضل ومن أدب

(١٢)

توفي الشيخ حسن العطار عام ١٨٣٥ م على الأرجح وقيل : بل توفي ١٨٣٤ م ، وعلى هذا فإنه عاش في القرن التاسع عشر قدر ما عاش في القرن الثامن عشر تقريرياً .

كتب عنه العلامة أحمد تيمور كتابة جميلة ، وكتب آخرون عن جوانب كثيرة من حياته الفذة .

الفصل الثاني رفاعة الطهطاوي

١٨٧٣ - ١٨٠١

(١)

هو الآن أشهر الشخصيات الفكرية في القرن التاسع عشر، وهو الآن رائد النهضة المصرية الحديثة، لكنه لم يكن معترفاً به على هذا النحو في أجيال سابقة ، حتى في عصر محمد علي، الذي بدأ فيه مجده ، ولا في العصر الذي امتدت إليه زعامته الفكرية وهو عصر إسماعيل، بل إنه فيها بين هذين العصررين عانى التهميش ، بل إنه عانى النفي في عهد عباس الأول !!

هو رفاعة بن بدوي بن على بن محمد بن على بن رافع الطهطاوي.

ولد بطحطا (محافظة سوهاج الآن) في ١٥ من أكتوبر ١٨٠١م، ونشأ نشأة عادية في بيت أبوين فقيرين، وتلقى تعليماً دينياً بدأه في الكتاب حيث درس ما كان متاحاً من العلم على نحو ما كان يتلقاه طلبة العلم في عصره، ثم التحق بالأزهر وانتظم في دراسته وتخرج فيه.

وفي الأزهر أتيح له أن يعرف الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥) الذي كان أبرز الشيوخ الذين تلقى العلم عليهم، وهو الذي وجهه إلى طريق التجديد والاجتهداد في طلب ودراسة العلوم غير التقليدية، وغير المألوفة لدى الأزهريين في ذلك العهد.

(٢)

وقد عين الطهطاوي مدرساً بالأزهر عقب تخرجه، وبعد عامين من العمل بالتدريس بالأزهر انتقل الطهطاوي إلى وظيفة الوعظ والإماماة في الجيش، وقد رشحه هذه الوظيفة الشيخ حسن العطار، فلما طلب الوالي محمد على من الشيخ العطار ترشيح أحد العلماء ليكون بمثابة الإمام الدينى للبعثة الدراسية المسافرة إلى باريس، رشح الشيخ حسن العطار الشيخ رفاعة، فسافر إلى باريس (١٨٢٦)، وقد أوصاه أستاذوه العطار بتدوين مشاهداته في بلاد الفرنسيين على النحو الذي صنعته الرحالة المسلمون القدماء من أمثال

ابن جبير، وابن بطوطة، ليتسع المسلمون بمطالعة هذه المشاهدات.

(٣)

لم يكن متوقعاً لرفاعة ولا منه عندما اختير إماماً للمبعوثين أن يتخطى مهمته في الوعظ والإرشاد لأفرادبعثة، لكنه عاش في باريس بوجдан يقظ، وبصيرة ناقلة، وظللت عينه مسلطة على ثقافتها وعلمها، وقد احتفظ بشخصيته العربية الإسلامية، وعاد إلى وطنه واسع الثقافة، سليم العقيدة، سليم الوجدان، مزوداً بالخبرة والخيال، معززاً خدمته على نحو ما يفعل كل وطني مسكون بحب بلده.

أثبت الطهطاوي طموحه إلى ما هو أكبر من الوظيفة التي اختير لها، والواقع أنه كان طموحاً لإماماة العلم والمعارف على نحو ما كانت إماماته في الصلاة والوعظ للمبعوثين، وهذا فإنه بدأ تعلم الفرنسية منذ أن ركب الباحرة التي سافر عليها من ميناء الإسكندرية، وفي باريس طلب أن ينضم رسمياً إلى سلك المبعوثين الدارسين، فكان هناك إماماً في شعائر الدين، وطالب بعثة تفوق على أقرانه من المبعوثين في طلب العلم الحديث واستيعاب الحضارة !

عاش رفاعة في باريس يبحث ويدرس، يناقش ويسأل في كل شيء مربه، وقد درس نظام الحكم بفرنسا، وترجم دستورها وعلق في كتابه «تلخيص الإبريز» على مواد هذا الدستور.

(٤)

كان كتاب الطهطاوي «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه بباريس بمثابة رؤية متميزة وانطباعية وصادقة أطلت بذكاء وتفحص ونقد على الحضارة الغربية الناهضة في عصرنا الحديث، وقد كتبه الطهطاوي بوجدان متطلع إلى نهضة أمته، وإن لم يخل كتابه وما سجله فيه من حديث عن غرائب وعجائب الرحلات.

شكل التكوين الإسلامي العميق والتعليم الأزهري الجاد سلاحين قويين للطهطاوي أعنانه على الوقوف أمام الحضارة الجديدة وقفنة ناقدة ، لا تخلو من إعجاب وتقدير، لكنه لم يندهش بكل ما رأى، وقد وظف ملكته النقدية في الحكم على ما هو صالح وعلى ما هو غير صالح، وتبدلت منذ كتابه هذا الدلائل الواضحة لقدرته الفائقة على اكتشاف العناصر

الأزهر باعثاً لشراة النهضة العربية

الجوهرية في مقارنة الفلسفات والتوجهات الفكرية ، وفهم العلوم الطبيعية ، وأسس صناعة التمدن متبعها إلى ما هو مشترك إنساني عام بين كل الحضارات والثقافات والديانات من ناحية، وحربياً على التمييز والتفريق بين الحالين والتجربتين من ناحية أخرى ، كما ظهر انتباهه الذكي إلى دور المعرف الدينية في تقييف وتهذيب النفس الإنسانية وإلى مدى ما تتميز به الحضارات والديانات من تأصيل وتجديد.

وكان رفاعة الطهطاوي يرى أن «علوم التمدن المدني» تمثل العلوم التي نحن أحوج ما نكون إليها ، وكان حربياً على التفريق بين هذه العلوم الطبيعية والبحثة والمحايدة من ناحية ، وبين علوم الفلسفة والمجتمع ، ومن المعروف أنه كان يقف وجلاً وحدراً ، بل ويدعو إلى التوقف أمام الفلسفة الوضعية المادية التي كفرت بالأديان ، والتي اعتمدت فقط على العقل المجرد والنوميس الطبيعية في تحصيل المعرفة والعلوم.

(٥)

كان للطهطاوي ميل فطري هذبه تعاليم الإسلام إلى أن يتمتع ازدهار مبادئ الحرية والديمقراطية في بلده ، وقد كتب في هذا المجال بروح مؤمنة طامحة مستشرفة لمستقبل أفضل.

وقد أهلته إجادته للغة العربية . مع الفرنسية . للنهوض بترجمة مختارات من فكر وعلوم الحضارة الفرنسية التي كان الشرق العربي والإسلامي غريباً عنها ، ومتطلعها إليها في ذلك التاريخ ، ومع أنه لم يكن أفضل المترجمين في عصره ولا أدقهم ولا أغزرهم ، فإن حرصه على أن يذكر أنه «يترجم ولا يؤلف» حفظ له حق الريادة في الترجمة بدلاً مما كان سهلاً عليه بادعاء الإبداع في كل ما كتب.

(٦)

عاش رفاعة الطهطاوي متحمّساً ، بل متّماً بدوره الذي عهد إليه في مدرسة الألسن ، وكان يرى في هذا الدور تجسيداً للإيمان بأهمية اطلاع العرب على الإنتاج الفكري في اللغات الأخرى (اللسان الأجنبي) حتى تصبح بلاده على اتصال دائم بالفكر العالمي .

وليس من قبيل الغلو في المدح أن نقول : إنه كان أولَ منْ أدرك أن الترجمة هي البداية الوحيدة للنهضة ، فبدأ بنفسه حيث قام بترجمة العديد من الكتب في الكثير من جوانب المعرفة.

وهكذا اقترن مرحلة النضج العقلي عند الطهطاوي بتقل العناصر الإيجابية (في نظره) من عناصر الثقافة الأوروبية الحديثة، وكانت هذه الفكرة تعبيراً عن نقلة حاسمة في تطوره الفكري، ومن ثم في تطور ثقافتنا الحديثة، وكانت لها أسبابها ومسبباتها في المناخ الفكري، كما كانت لها آثارها وتأثيراتها في مجتمعنا الثقافي.

وعلى سبيل المثال فإنه دعا إلى تعليم المرأة وتنقيتها أسوة بالرجل، واتضحت هذه الفكرة في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» الذي ظهر (حتى في عنوانه) النص على أولوية تعليم المرأة حتى تقوم بواجباتها، ولاشك في أنه أول من دعا إلى تحرير المرأة، وإن كانت دعوة قاسم أمين التالية له بقرن من الزمان قد لقيت من التمجيد ما لقيته بحكم عهد جديد.

(٤)

ظل الطهطاوي مؤمناً بأن ثقافتنا العربية جذوراً تاريخية قوية، وأن هذه الجذور شهدت إنجازات واكتشافات حضارية، وكان يؤكد على أن المنصفين من الأوروبيين شهدوا بذلك، حيث يقررون أنها قامت على القدرة المبدعة للإنسان العربي، سواء في تعامل العربي مع الطبيعة واستئناسها، أو في تعامل العربي مع المجتمع بتوسيع مدركات أفراده في مجالات كثيرة منها الفكر والأدب والفن.

ركز رفاعة الطهطاوي في كل ما كتب على الاعتداد بالعقل كمرشد ووجه، وهذا كان ، في رأي كثرين ، أول من أرسى الدعوة إلى عصر التنوير.

كان رفاعة الطهطاوي معجبًا بالصحافة الفرنسية، وقد وصفها بقوله: «إن الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة، سواء كانت داخلية أو خارجية»، وكان إعجابه يدفعه إلى أن يتمنى لبلده صحفة جديدة، وهذا فإنه أجاد العمل حين أتيح له أن يسهم في تأسيس الصحافة الحكومية وتطويرها في «الواقع المصرية».

(٨)

وقد أبدى الطهطاوي إعجابه المتكرر بما كان يراه من تقدم فرنسا في ممارسة وتنظيم الحرية، ومؤسساتها الدستورية والنيابية والقانونية، وحرص على أن ينبه أمه إلى مكانة الحرية في التمدن والعمان، وإلى مميزات النظم الدستورية المقيدة لسلطات حكوماتها

بالقانون، لأن الحرية (كما قال) : « هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالى المالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالى، وإسعادهم في بلادهم، وكانت سببا في حبهم لأوطانهم، وقد تأسست المالك لحفظ حقوق الرعايا، والحرية، وصيانته النفس، والمال، والعرض، على موجب أحکام شرعية، وأصول مضبوطة مرعية، فالمالك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين» .

(٩)

ظل الطهطاوى يدعو إلى المزاوجة بين العدل والعدالة الاجتماعية، وكان يصف العدل بأنه «أصل عمارة المالك التي لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وبجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع منه، وكالصفة من صفاته، وحب النفس خصلة جامدة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشري، إلا إذا صحبتها حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان.

في عصر إسماعيل نادى رفاعة الطهطاوى بإصلاح النظام القضائى ، ورأى أن يمهد هذه الفكرة بتعريف القوانين الفرنسية حتى يمكن الإفادة منها، وكانت هذه هي المهمة التي ندب نفسه في مرحلة من المراحل لها مهمة شاقة تتطلب اطلاعا واسعا على هذه القوانين، وفيها لفلسفتها وغاياتها ولتاريخ وضعها وظروف هذا الوضع وملابساته، كما كانت تتطلب ما كان الطهطاوى مؤهلا له بالفعل من معرفة عالية باللغة العربية، وباللغة القانونية، وبأحكام الشريعة الإسلامية، حتى يمكنه ضبط المصطلحات المطابقة لهذه الشريعة في هذه القوانين.

(١٠)

كانت الوطنية المصرية عند الطهطاوى لا تعارض مع فكرة العروبة القائمة على عروبة اللغة واللسان، وكان يكرر القول بأن العرب هم خيار الناس، ولسانهم أفصح الألسن، وقد اشتهرت أمّة العرب جاهليّة وإسلاما بالفضائل، وظلّ الطهطاوى يرى الوطنية والعروبة في دائرة الانتهاء لحضارة الإسلام، وفي هذا الصدد فإنه وهو يكتب التاريخ فسر حروب محمد على باشا ضد الدولة العثمانية، باعتبارها حركة إحياء وتجديد لشباب الدولة الإسلامية الجامحة، وهذا فإنه كان يقول : إن هذه الحروب لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، وإنما كانقصد منها: « تنبئه أعضاء ملة

وجنسية عظيمة، تحسبهم أيقاظاً وهم رقود!».

وقد كان الطهطاوي أول شاعر نظم العديد من الأناشيد الوطنية في عصرنا الحديث، وفي أحدها يقول:

من أصل الفطرة للفطن بعد المولى حب الوطن
هبة من الوهاب بها فالحمد لوهاب المن

(١١)

أما فيما يتعلق بالفلسفات الاقتصادية والاجتماعية فقد كان الطهطاوي حاسماً وواضحاً في اعتراضه على مبادئ الاشتراكية الخيالية (الطوباوية) الفرنسية، ذات التزعة الوضعية الإلحادية، على نحو ما بشر بها الفيلسوف الفرنسي سان سيمون، وقد عبر بوضوح شديد عن رفضه لفكرة المشاعية والشيوعية أو على نحو ما فهمها بحكم خلفيته الأزهرية من أنها هي المذكورة الفارسية وعند القرامطة القدماء بقوله:

«ومذهب المذكورة يدعو إلى تساوى الناس في الأموال، وأن يشتراكوا في النساء، وهو قريب من مذهب القرامطة في أيام الخلفاء، ومن مذهب سان سيمون الجديد بفرنسا، فكان زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الإنس، على اختلاف الجنس!».

وفي الوقت نفسه فإن رفاعة لم يكن متھمساً لفكرة الفردية الرأسالية في صورتها الليبرالية الأوروبية، وإنما كان يدعو إلى نظام اجتماعي متوازن، لا يحمل معيار ملكية رأس المال أو الأراضي الزراعية.

وفي هذا الصدد كان الطهطاوي يدعو إلى تغليب نصيب العمل على نصيب الملكية في عائد الأرض والصناعات والتجارات، وكان يبرر هذا بقوله: إن منع السعادة الأولى هو العمل والكد، وإن أعظم حرية في المملكة المتقدمة هي حرية الفلاحة (الزراعة) والتجارة، والصناعة، كما كان يلفت النظر إلى أن العدل هو أساس ما كان يسميه الجمعية التأسيسية «المجتمع الإنساني»، والعمaran والتمدن.

(١٢)

لقيت آراء رفاعة الطهطاوي الحضارية والتربوية وجهوده الفكرية والسياسية وإنتاجه الأدبي والفكري عناية كثير من الدارسين المعاصرین في عدد كبير من الأطروحات العلمية والكتب

منها:

- د. أحمد أحمد بدوي: رفاعة الطهطاوي بك أحد أركان النهضة العلمية العربية.
- د. محمد محمد إبراهيم يونس: الآراء التربوية في كتابات رفاعة الطهطاوي، رسالة ماجستير بكلية التربية جامعة المنوفية، ١٩٨٣ م.
- د. جمال الدين الشيال: رفاعة رافع الطهطاوي، دار المعارف، ١٩٨١ م.
- د. عبد الحميد هلال عبد العزيز: شعر الطهطاوي بين التقليد والتجدد، ١٩٨٨.
- د. أحمد أحد سيد أحد: رفاعة رافع الطهطاوي في السودان، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٧٣.
- د. حسين فوزي النجار: رفاعة الطهطاوي رائد فكر وإمام نهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- د. أنور لوقا غبريل: ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي، دار المعارف، ١٩٨٥ م.

(١٢)

- وكتب عنه أساتذة ومؤرخون ضمن أطر أوسع :

- د. محمد عماره: مسلمون ثوار.
- نعیان عاشور: صور من البطولة والأبطال.
- نعیان عاشور: رفاعة الطهطاوى، أو بشير التقدم (مسرحية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.
- د. عمر الدسوقي: في الأدب الحديث.
- د. فتحي رضوان: دور العهائم في تاريخ مصر الحديث.
- د. عبد اللطيف حمزه: أدب المقالة الصحفية.

(١٤)

مؤلفات رفاعة الطهطاوي :

- «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وقد طبع أيضاً بعنوان آخر «الديوان النفيس باليوان باريز، وله طبعات عديدة، وأهم طبعاته هي تلك التي ثبتت بتحقيق الدكتور محمد مهدي علام وأخرين (١٩٥٨)، وقد طبع هذا الكتاب بمقدمة الدكتور محمود فهمي حجازي باسم «أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي» (١٩٧٤).

- «أنوار توفيق الجليل في أخبار وتوثيق بني إسماعيل» (١٨٦٨)، ويظهر من عنوان هذا الكتاب مدى ولاء الطهطاوي للخدیو توفيق، وهو ولاء شیبه بولاء على مبارك الذي أطلق اسم الخدیو توفيق على خططه وسماها «المخطط التوفيقية».
- «نهاية الإیجاز في سیرة ساکن الحجاز» طبع ١٩٧٩ في ثلاثة أجزاء، وقدم لإحدى طبعاته الدكتور فاروق أبو زید.
- «مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية» (١٨٦٩).
- «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين» (١٨٧٣).
- «القول السديد في الاجتہاد والتقلید» (١٨٧٠).
- «البدع المتقررة في الشیع المتربرة».
- «قلائد المفاخر في غریب الأوائل والأواخر»، وهو قسمان: الأول: أخلاق الأوروبيین، والثاني: معجم الاصطلاحات الجغرافية والتاریخیة (١٨٣٣).
- «بحث في المذاهب الأربع».
- «الکواكب النیرة في لیالی أفراح العزیزة المقرمة» (١٢٨٩ هـ).
- «قانون ترتیب ونظام المشیخة البلدیة» (١٢٨٣ هـ).
- «القوانين الفرنیسیة المدنیة، والدوائر البلدیة، والمحاكمات، والمرافعات، وتحقيق الدعاوى والجنایات» (١٢٨٣ هـ).

(١٥)

ولرفاعة في علوم اللغة العربية:

- «شرح لامية العجم».
- «التحفة المکتبیة لتقریب اللغة العربية» (١٨٦٩)، وهو كتاب في علم النحو، وقد حققه الدكتور البدراوي زهران ونشره (١٩٨٣) تحت عنوان «رفاعة الطهطاوي ووقفة مع الدراسات العربية الحديثة مع تحقيق نص كتابة التحفة المکتبیة».
- «جمال الأجر ومية» (١٨٦٣).
- خاتمة «قطر الندى» في النحو.

(١٦)

وقد وضع رفاعة عدداً من الكتب التعليمية في العلوم الأخرى:

- «أرجوزة في علم الكلام»، وهو منظومة شعرية.
- «المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق» (١٨٣٢).
- «مبادئ الهندسة» (١٨٦٧).
- «نبذة في علم سياسات الصحة».
- «أصول الحقوق الطبيعية التي يعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم».
- «نبذة في الميثولوجيا، وهي: جاهلية اليونان وخرافاتهم».
- «مقدمة وطنية مصرية».

وله من المترجمات أيضاً:

- «المنطق».
- «روح الشرائع» مونتسيكو.
- «الدستور الفرنسي».

(١٧)

- وله في التاريخ:

- «نبذة في تاريخ الإسكندر الأكبر».
- «تاريخ قدماء المصريين» (١٨٣٨).
- «برهان البيان وبيان البرهان في استكمال واحتلال دولة الرومان» (١٢٩٣ هـ).

وله من المترجمات في هذا المجال:

- «بداية القدماء وهداية الحكماء» في تاريخ الشعوب القديمة: بنو إسرائيل، والسريانيين، والميتوبيين، واليونان والهنود، (١٨٣٨).
- «موقع الأفلاك في أخبار (أو وقائع) تلياك» (١٨٦٧) تأليف سير جومار.
- «تقويم سنة ١٢٤٤» دومرسيا.
- «المصابيح المنيرة في تاريخ القرون الأخيرة» داغردن، (١٢٦٦ هـ).
- «ثلاث مقالات من كتاب بلندر في علم الهندسة».

(١٨)

- وله في الجغرافيا وما ينصل بها :
- «مقدمة جغرافية طبيعية» (١٨٣٠).
- «النقربيات (أو التعريفات) الشافية لمزيد الجغرافيا» (١٨٣٤).
- «نبذة في علم هيئة الدنيا».
- «ترجمة الكنز المختار في كشف الأرضي والبحار» (١٨٣٦).
- ترجمة كتاب «ملطرون» عن الجغرافية العمومية.

(١٩)

- وما تم إنجازه لرفاعه الطهطاوي بعد وفاته :
- جمع الدكتور طه وادي «ديوان رفاعه الطهطاوي» وحقق وقدم له.
- أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب «نشرة عن كتب رفاعه الطهطاوي» وهي نشرة بيليوغرافية عظيمة القيمة اعتمدنا عليها في هذا الباب في أكثر من موضع .

• توفى رفاعه الطهطاوي بالقاهرة في ٢٩ من مايو ١٨٧٣ م.

الباب الثاني
رمزان للرعاية

الفصل الثالث

على مبارك باشا

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

(١)

لقب على مبارك باشا بأبي التعليم وفي هذا التلقيب جانب كبير من الصواب ، فهو رائد للتعليم المصري الحديث في جوانب كثيرة ، لكن قيمته التي تجعلنا نخصص له بابا من أبواب هذا الكتاب هي أنه صاحب الريادة الكتابة الموسوعية عن مصر ، وهو ما تمثل في كتابه الأشهر « الخطط التوفيقية » بأجزاءه العشرين ، وإحيائه لفن الخطط وما يمثله هذا الفن من مقاربة موسوعية للتاريخ والتراث والحاضر والثقافة والأدب ، وهو مع الشيخ محمد عبد الله فكري أبرز الرؤساء الفكرية في القرن التاسع عشر ، كما أنه معهما ومع البارودي والمولى حفي و البكري يمثلون أعمال الأدب بمعناه الواسع ، وقيمتهم الفكرية أعلى من قيمته الهندسية ، وكلتاها أعلى من قيمته السياسية وإن كان هو - بلغة عصرنا - أبرز شخصية تكنوقратية بين سياسي القرن التاسع عشر .

(٢)

يعود أكثر ما نعرفه عن سيرته الذاتية إلى ما رواه هو بنفسه من هذه السيرة وهو يذكر أنه ولد في برنباي وقضى فيها السنوات الأولى من حياته، وكان هو الشقيق الوحيد لسبعين شقيقات، كما يذكر أن ظروفًا مالية قاسية مرت بعائلته، فهاجرت إلى أكثر من بلد مجاورة، وكان عمره إذ ذاك ست سنوات، وكان قد ابتدأ في تعلم القراءة والكتابة. وكانت «عرب السماونة» بالشرقية إحدى البلاد التي هاجر إليها في صحبة والده، وكان أهلها أناساً طيبين، ولم يكن عندهم فقهاء، فأنزلا والده منزل الإكرام والإجلال وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعاً كبيراً، وأصبح مرجعهم في الدين، وكان - أبي والده - رجلاً صالحاً، متყها في الدين، حسن الأخلاق، فأحبوه جداً شديداً، وبنوا جاماً خاصاً جعلوه إماماً، وهو يصف والده فيقول: كان والدي جميل الهيئة، أبيض اللون، فصيحًا متأدباً، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه.

(٣)

في فترة اغتراب والده عن قريته عاش على مبارك حياة مضطربة مفترياً حيناً، برغم طفولته، وعائداً إلى رحاب أبيويه حيناً آخر، لكنه استطاع في هذه الفترة أن يتم حفظ القرآن الكريم. وحين شب عوده قليلاً مارس أعمالاً كثيرة، كان منها العمل كاتباً في السجن حيث تولى كتابة أسماء المسجونين، فعاملوه كأنه سجين، الأمر الذي دفع به إلى الهرب وممارسة أعمال أخرى كان راتبه الشهري فيها يتراوح بين خمسين قرشاً وخمسة وسبعين قرشاً.

وانتهى الأمر به إلى الالتحاق بمدرسة قصر العيني، وكانت مدرسة مدينة عادية قبل أن تتحول إلى مدرسة للطب، ومنها انتقل إلى مدرسة أبي زعل التي انتظم فيها، وقد وصف حالته الدراسية فيها فقال: «كان أثقل الفنون على وأصعبها فن الهندسة والحساب وال نحو، فكنت أراها كالطلasm، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة»، ولكنه مع الصبر والمثابرة نبغ في الهندسة والحساب، وصار أول فرقته، فوقع عليه الاختيار للالتحاق بمدرسة المهندسخانة، بعد ثلاث سنوات من دراسته في مدرسة أبي زعل، وقضى في مدرسة الهندسة خمس سنين أخرى، تلقى في أثنائها علوم الجبر والميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات وحساب التفاضل وعلم الفلك الذي كان يقوم بتدريسه محمود باشا الفلكي، والطبوغرافيا، والكيمياء، والطبيعة، والمعادن، والجيولوجيا، والهندسة الوصفية، وقطع الأشجار والأحجار.

ثم هيأت له المقادير السفر إلى أوروبا وقد رشحه للبعثة سليمان باشا الفرنساوي وكانت البعثة التي ألحق فيها على مبارك للسفر إلى فرنسا تضم عدداً من أمراء أسرة محمد علي، ومن بينهم الأمير إسماعيل الذي أصبح خديجو مصر، وسافرت البعثة في آخريات عهد محمد علي وبالتحديد سنة ١٨٤٤ م أي بعد أن قللت أظفاره وإلى مصر بمعاهدة لندن، وأصبح على مبعوثيه أن يفكروا في الحياة المدنية والهندسية لا في الحروب والعسكرية.

(٤)

وفي فرنسا تعلم اللغة الفرنسية، وبعد ستين من البعثة ألحق بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بمدرسة ميتس، ومنح رتبة الملازم الثاني، وقضى في تلك المدرسة ستين

الأزهر باعثاً لشراة النهضة العربية

تعلم خلاها فن الاستحكامات الخفيفة والثقيلة والمعارض المائية والهوائية، عسكرية ومدنية، والألغام وفنون الحرب.

وشاء حظه الحسن أن يكون القائد إبراهيم باشا بن محمد على في باريس عندما عقد الامتحان النهائي لهؤلاء المبعوثين ومنهم ولده الأمير إسماعيل، وكان ترتيب علي باشا مبارك الأول بين الناجحين، وقد سلمه إبراهيم باشا بيده هدية التفوق، وعاد بعدها إلى مصر في أثناء عهد عباس باشا الأول، وبعد عودته اشتغل ياورا السليمان باشا الفرنساوي أركان حرب الجيوش المصرية.

(٥)

وقد أجاد علي مبارك نفسه تصوير اللحظة التي حدث فيها لقاوه بأمه عند باب خشبي، إذ كانت الأم تمسك بيدها المسرجة وهي تفتح الباب لترى في الضوء الخافت ضابطاً واقفاً أمامها، فتصرخ رعاها، لأن الضباط والعساكر لا يذهبون إلى البيوت في ظلم الليل إلا للشر.

لكن الشاب الذي كان يدرك هذا المعنى قال لأمه: أنا علي.. أنا علي.

فصاحت الأم وهي تقترب بالمسرجة في يدها نحو وجهه: علي.. ابني؟

ثم اطمأن قلبها، وتبدل الفزع إلى فرح، ووضعت المسرجة على الجدار ورفعت كفها إلى فمها وزغردت، فقد أصبحت بين أحضان ولدتها العائد من فرنسا.

واستيقظت قرية «برنبال» على أصوات الزغاريد، وحمل الفلاحون فوانيسهم ومعهم نسائهم وأطفالهم، واتجهوا نحو بيت علي مبارك.

(٦)

ترقى علي مبارك في سلم العسكرية المصرية حتى وصل إلى رتبة أمير الای، ولما نشب الحرب التركية - الروسية المعروفة بحرب القرم سافر إلى تركيا واختير مع القوات المصرية التي سافرت لهذه الحرب، وزار في طريقه المدن التركية، وبعد عامين عاد من رحلته تلك مزوداً بفنون الحرب، وعلوم السلام.

وبعد عودته من حرب القرم عين ناظراً للقناطر الخيرية، وأجرى فيها إصلاحات

كثيرة ثم عهد إليه تباعاً بمهام رفيعة المستوى، فعهد إليه بإدارة السكك الحديدية المصرية، وإدارة ديوان المدارس (وهو نواة وزارة المعارف)، وديوان الأشغال العمومية ثم أصبح كما نعرف وزيراً للمعارف وللأشغال والأوقاف ، وهو بهذا قد تولى نصف الوزارات الأولى أو القديمة .

(٧)

عندما اختير على مبارك ناظراً للمدرسة الهندسخانة بدأ أولى خطوات تعريب العلوم الهندسية والعلوم الطبيعية المتصلة بها (الرياضيات والفيزيقيا) في العصر الحديث حيث قرر تأليف الكتب المدرسية باللغة العربية، حتى أصبحت كل العلوم الهندسية والعسكرية تدرس بالعربية، وأنشأ مطبعة خاصة لمدرسة الهندسخانة طبع فيها أكثر من ستين ألف نسخة من هذه الكتب.

وقد تصادف أن حدث خلل في القناطر الخيرية وأوشكت الدلتا كلها أن تتعرض للغرق، وعجز المهندسون الفرنسيون عن إصلاح الخلل، وتقدم على مبارك بمشروعه لإصلاح القناطر، ولم يقنع الخديو إسماعيل عندما عرض عليه المشروع، فعقد اجتماعاً حضره المهندسون الفرنسيون وحضره على مبارك واستعرضوا وجهات النظر المختلفة، وأقرّ الفرنسيون مشروع على مبارك، واعتذروا له، ثم تولى بنفسه إصلاح الخلل، وأنقذ دلتا النيل من الغرق.

(٨)

وفي أثناء تولي علي مبارك إدارة السكك الحديدية أراد إسماعيل باشا المفتش (الذي كان مسؤولاً عن المالية في عهد الخديو إسماعيل) إضافة إيرادات السكك الحديدية إلى وزارة المالية، فرفض على باشا مبارك ونجح إسماعيل المفتش في الوصاية به عند الخديو إسماعيل الذي فصله من كل وظائفه، رغم زمالتها السابقة في أثناء تلقي العلم في باريس ، ثم لم يلبث الخديو أن أعاده إليها بعد أن عجز خلفاؤه عن إدارتها.

والواقع أن على مبارك كان مهندساً على المستوى العالمي ، وهو صاحب فكرة النمط القياسي التي كان حريصاً على أن يجعلها بمثابة فلسفة المعمارية في المباني العامة، وقد

الأزهر باعثاً لشراة النهضة العربية

استخدمها بالفعل في إنشاء محطات السكك الحديدية عندما تولى أمرها، فجعل كل المحطات على نسق معماري واحد في كل البلاد بحيث تؤدي الخدمات على خير وجه، مع اختلاف أحجامها في المدن الكبيرة أو الصغيرة.

كان على مبارك قد شرع في إدخال نظام المخاري أو الصرف الصحي، فسافر إلى فرنسا ودرس هذا النظام على الطبيعة هناك حتى ينفذه في القاهرة، ولكن نهاية دولة إسماعيل الطاغية لم تتح له أن ينفذ مشروعه.

(٩)

ونأتي إلى إصلاحاته التعليمية المبكرة التي شملت إنشاء مدارس للبنات لأول مرة في مصر، فهو الذي أنشأ المدرسة السنية للبنات، وخصص فيها قاعات للرسم والتدبير المنزلي والموسيقي.

وفي صعيد التعليم العالي فقد كان هو الذي تولى إنشاء مدرسة دار العلوم وصاغ مناهجها وشخصيتها بكل ما يمتلكه من محاولة جادة لتطوير معاهد تدريس الدين الإسلامي وعلوم اللغة العربية المتصلة به.

وأنشأ على مبارك أربع مؤسسات كان لا بد من وجودها لنشر الثقافة العلمية وخدمة النهضة الموسوعية من خلال قواعد أو بنية أساسية قوية:

فهو الذي أنشأ «الإنفتیاتر»، وهو مدرج المحاضرات العامة، وكان هذا المدرج في درب الجماميز، وله مواسم للمحاضرات التي يلقاها كبار الأساتذة، وكان هو نفسه يحضر هذه المحاضرات، مما شجع الباشوات والوجهاء وال العامة على الحضور، وسعى المثقفون المصريون للانتظام في حضور هذه المحاضرات، فكان هذا المدرج يمثل نواة حقيقة لجامعة حرة قامت بدور هام في حركة النهضة العلمية والثقافية.

وفي درب الجماميز أيضاً أنشأ على مبارك المؤسسة الثانية وهي معمل الكيمياء والطبيعة، وهو بمثابة متحف علمي حيث يتبع العلم التفاعلي لهوا العلم والمعرفة. وفتح أبواب هذا المعمل للتلاميذ حتى يكونوا على صلة دائمة بالتطورات العلمية الحديثة.

وب قبل هاتين المؤسستين كان على مبارك هو الذي أسس دار الكتب الخديوية لتكون بمثابة المكتبة الوطنية لمصر.

ويتصل بهذه المؤسسات مؤسسة رابعة تمثل في الصحافة المدرسية أو العلمية ، وقد كان على مبارك رائدها فهو أنشأ مجلة «روضة المدارس» على نفقة وزارة المعارف، وجعل منها نافذة جديدة للفكر المستير.

(١٠)

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن علي مبارك كان قد درس مناهج التعليم في فرنسا معرفة كاملة، حتى أنه عندما كان وزيراً للمعارف راجع هذه المناهج وأعاد دراستها بتفكير مفتوح وعقل ناضج، ثم وضع بعد ذلك مناهج التعليم في المدارس المصرية الابتدائية والثانوية، وظللت هذه المناهج سائدة في مصر أكثر من مائة سنة، وخرجت الأجيال المتعاقبة من المتعلمين المصريين.

وتقديرًا لكل هذه الجهود منحه الخديو إسماعيل كثيراً من الرتب والأوسمة كما منح رتبة البشوية ، واستمر الخديو توفيق على نهج والده في تقدير علي مبارك .

ومع كل هذه الإصلاحات فقد كان أثره في مدرسة الطب (قصر العيني) أقرب ما يكون إلى أن ينال الوصف الشائع أنه كان أثراً تدميرياً أو مدمرًا، وقد أوديَت الكلية في عهده إيزاء شديداً على نحو ما نقلنا عن علي باشا إبراهيم في كتابنا عنه.

ولما قامت الثورة العربية كان من الذين وقفوا مع الخديو ضد عرابي ولهذا فإنه في عهد الثورة العربية أبعد عن السلطة.

(١١)

كان علي مبارك واحداً من أعضاء مجلس النظار الأول الذي تشكل برئاسة نوبار باشا في أغسطس ١٨٧٨ ، وقد أُسندت إليه فيه وزارة الأوقاف والمعارف العمومية ، كما أُسندت إليه وزارة الأشغال بالنيابة ، أي أنه دوناً عن زملائه الوزراء تولى ٣ وزارات .

وفي مارس ١٨٧٩ اشتراك في الوزارة الثانية التي رأسها الأمير محمد توفيق وزير الأوقاف والمعارف أيضاً ، وفي سبتمبر ١٨٧٩ عاد لتولي وزارة الأشغال العمومية في وزارة رياض باشا ، وكذلك في أغسطس ١٨٨٢ في وزارة شريف باشا ، وكان آخر عهده بالوزارات توليه وزارة المعارف في يونيو ١٩٨٨ في وزارة رياض باشا الثانية.

(١٢)

ونأى إلى إنتاجه الفكري ؛ فاما كتابه الأشهر «الخطط التوفيقية» فهو من أبرز كتب الإنتاج العربي في ميدان الموسوعات، ذلك أنه يحوي من فنون المعرفة والأدب من شعر ونشر، والتاريخ بمختلف ميادينه وعصوره، والجغرافيا والبلدان والترجم والهندسة بفنونها وعلوم الحرب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والتربية والسياسة وفنون الحكم، وهو في وقته وزمانه يمثل مفخرة علمية من مفاخر علماء العرب والمسلمين.

وهو المرجع الأول للتاريخ لبدايات الحضارة المصرية الحديثة في كل مجالاتها العمرانية والفكرية أو الثقافية، ولو لا ما احتواه هذا الكتاب ما عرفنا تاريخ حياة كثرين من عظماء مصر وبناء حضارتها.

وقد اختار على مبارك لكتابه عنواناً طويلاً هو «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة»، وقد عبر على مبارك باسم هذا الكتاب عن حرصه على الوفاء للخديو توفيق حاكم مصر إبان تأليفه هذا الكتاب، وقد كان على مبارك بشجاعته وقوة شخصيته حريراً على إعلان هذا الولاء والوفاء على الرغم من اختلاف الآراء في الحكم على الخديو توفيق، وعلى الرغم من أن أكثر الكتاب لا يزالون يميلون إلى تجريمه في وطنته.

(١٣)

تدلنا الخطط التوفيقية على شغف على مبارك بتاريخ مصر، وإعجابه وحبه لأساليب التأليف القديمة في التاريخ وبخاصة تلك التي اشتهر بها المؤرخون الذين جعلوا «الخطط» مدخلاً لكتابهم في الحديث عن التاريخ العام والتاريخ الحضاري والعماري، وفي مقدمة هؤلاء: المقريزي صاحب أشهر في هذه السلسلة المتعددة من مؤلفات المؤرخين العرب، وليس ثمة شك في أن على مبارك تأثر بالمقريзи بكل وضوح.

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب يعبر على مبارك عن حبه لمدينة القاهرة واحتفاله بها، من حيث تاريخها القديم والوسط وأحاديثها، وأثارها، ومساجدها، ومدارسها، وأحيائها وشوارعها، وعلمائها، وأوليائها، والزوايا والخانقاوات والكنائس والأديرة، والأضرحة، والحمامات، والحوالى والدروب، وقد خصص للقاهرة الأجزاء الأربع الأولى من كتابه

وخصص الجزء السابع بأكمله لمدينة الإسكندرية، وعلى هذا النحو مضى في التعريف بمدن مصر الأخرى، والقرى والنجوع، منها عظم شأنها، أو ضئل حجمها.

(١٤)

كانت عناية على باشا مبارك بالقرية المصرية لا تقل عن عنايته بالمدن، ولم يكن تشابه أسماء العشرات من القرى حاجزا دون انطلاقه في وصفها والعنابة بها، وقد درس الأسماء المتكررة للقرى والبلاد وذكر تكراراتها المختلفة في قرى مصر ومدنها (منية، وشبرا، وزاوية، وملة، وكوم، وسفط) وهو الجهد العظيم الذي أفاد منه فيما بعد ذلك الأستاذ محمد رمزي ، وأضاف إليه على نحو ما أشرنا في كتابنا «النجوم المتعاقبة» .

- * منية وجمعها مني الميم، وقد حرف العوام نطق بعضها إلى ميت بكسر الميم، ثم ياء ثم تاء، وقد أورد على باشا مبارك مائة وستة وسبعين مدينة وقرية تحمل هذا الاسم.
- * وإحدى وأربعين قرية تحمل اسم «شبرا»، مضافا إليها اسمها يميزها عن غيرها، وشبرا اسم فرعوني بمعنى محلة أو بلد.
- * ومن القرى التي تحمل اسم «زاوية» أورد المؤلف أسماء ثلاثة وثلاثين بلدة.
- * وهناك عدد كبير من المدن والقرى تحمل اسم «ملة»، وقد أورد منها اثنتين وثلاثين بلدة من أشهرها المحلة الكبرى.
- * وهناك أيضا «الكافور» جمع كفر، وقد أورد المؤلف أسماء ستة عشر كفرا.
- * كذلك ذكر ست عشرة بلدة تحمل اسم «سفط».

وكان على باشا مبارك حريصا على أن يذكر علماء كل بلدة، وأعيانها، منها كان عددهم، ومهمها اختلفت فنونهم.

(١٥)

وفي «الخطط التوفيقية» وصف على مبارك قريته الصغيرة «برنبال الجديدة» فقال: «إن بها مسجداً ومنزلاً لبناء والده، وفيها أربع مضائق ومضيقاً حسنة لبعض أكبادها، وعملاً للدجاج للتغذية، ومصبغتان، وأربعة أنوال لنسج الصوف، وعشر طواحين، ودكان واحدة

الأزهر باعثاً لشراوة النهضة العربية

تابع فيها العقاقير، وضربيح ولـي يسمى «عيسي»، وفيها وابوران، وبأعـة يـعون الخـسـ والفسـيخـ ونحو ذلك، ونواتـةـ، ونجـارـ، ومـكـتبـ لـتـعلـيمـ القرـآنـ، وـحـارـاتـهاـ أـربعـ مـعـتـدـةـ منـ الشـرـقـ إـلـىـ الغـربـ عـلـىـ اـسـتـقـامـةـ وـاحـدـةـ، وـلـيـسـ بـهـاـ مـنـ الـأـشـجـارـ إـلـاـ نـخـلـتـانـ...».

(١٦)

ولعلي مبارك بالإضافة إلى الخطط التوفيقية عدد من المؤلفات المهمة :

- سيرته الذاتية أو ما تقبلناه وتناقلناه على أنه سيرته الذاتية : «علم الدين» في ثلاثة مجلدات ، وقد تناولناه في موضع آخر من كتاباتنا عن السير الذاتية .
- و «حقائق الأخبار في أوصاف البحار» .
- و «خواص الأعداد» ، وكلا الكتابين الآخرين كتاب مدرسي .
- و «نخبة الفكر في نيل مصر» .
- و «تذكرة المهندسين» .
- «تقريب الهندسة وجغرافية مصر» .
- «الميزان في الأقiseة والمكافيل والأوزان» .

(١٧)

وقد أسهم علي مبارك في ترجمة بعض الكتب الفرنسية الكبرى، وفي مقدمتها كتاب «خلاصة تاريخ العرب» للمستشرق الفرنسي سيديو.

(١٨)

كتب الدكتور محمد دري الحكيم عن سيرة علي مبارك كتابة ممتازة أشرنا إليها في كتابنا «النجمون المتعاقبة في كتابة تاريخ مصر المعاصر» ، وكتب عنه آخرون كتابات متعددة، وإن اختفت زوابيا تقديرهم لفضلـهـ وـفـهـمـهـ وـإـنـجـازـهـ .

الفصل الرابع

عبد الله فكري باشا

(١٨٣٤ - ١٨٩٠)

(١)

يعود معظم الفضل في الانتباه إلى أهمية كتابة تاريخ عبد الله باشا فكري، بل والبدء في كتابة هذا التاريخ إلى الأستاذ الإمام الأستاذ محمد عبده، أما كتابة سيرة حياته على نحو موسع فقد اضططلع بها الأستاذ محمد عبد الغني حسن.

كان عبد الله فكري بمثابة أبرز الأدباء في القرن التاسع عشر، وكان شاعرًا تقليدياً، وثائراً مجددًا، وكان رجل علم، وصاحب دور في الحياة العامة، وهو الذي تصدى لتحقيق آمال الأستاذ الإمام محمد عبده في الإصلاح والتقدم وسط لهيب النار في الثورة العربية، على الرغم من الاختلاف الدقيق في موقف كل منها من هذه الثورة على نحو ما سترى.

(٢)

ذكر جورجي زيدان نسبه على النحو التالي: «عبد الله باشا فكري بن محمد أفندي بلينغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد»،

وذكر أن جده الشيخ عبد الله كان من العلماء المدرسين في الجامع الأزهر، وكان مالكي المذهب، وقد أخذ العلم عن الشيخ عبد العليم الفيومي وغيره، وكان مقيناً في مصر حين قدمت الحملة الفرنسية، فلما أساؤوا معاملة العلماء رحل إلى منية خصيب (هي المعروفة الآن باسم: المنيا) فأقام بها مدة ثم عاد إلى القاهرة، وعكف على الاشتغال بالعلم حتى توفي.

أما الوالد محمد أفندي بلينغ فقد درس في المدرسة الحربية، وانتظم في خدمة الجيش وترقى إلى رتبة «صاغ قول أغاسي»، وقد حضر في أثناء خدمته عدة مواقع حربية أهمها حرب المورة، وكانت لهذه الموقعة أهمية شخصية في حياته حيث تزوج فيها زوجته التي أنجبت له ابنه عبد الله، وقد تصادف أن ولادته تمت في مكة المكرمة التي كان والده قد

انتقل إليها لظروف عمل الوالد.

تربي عبد الله باشا فكري وتنقل مع والده محمد أفندي بلخ الذي عاد إلى القاهرة وظل في خدمة الحكومة ، حتى نال منصب باشمهندس الشرقية، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة.

ويشير عبد المنعم شميس إلى أن اسمه المركب عبد الله فكري كتب هكذا بمعرفة السلطة الحاكمة، وقد كان من تقاليد ذلك العصر أن هذه الأسماء كانت تمنح للموظفين مع قرار تعينهم في وظائفهم، فهي أسماء مزدوجة لا علاقة بها بالأباء والأجداد، وكأنها أسماء شهرة، أو كأنها الأسماء الفنية التي يعرف بها النجوم في السينما والمسرح.

ومن الطريف أن سنة ولادته (في التاريخ المجري) وافقت بحساب الجمل (الذي كان مستعملًا بكثرة في زمنه) بمجموع جمل الآية القرآنية ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَتَنِيَ الْكِتَابُ﴾ [مريم: ٣٠]، وقد وافق هذا اشتهراته بالعلم والفضل، ونبوغه في فنون الكتابة نثراً ونظمًا، وقد أعجب هو نفسه بهذا الاتفاق فلما شبّ وتعلم جعل من هذه الآية شعارًا له ونقشها على خاتم له كان يختتم به كتبه.

ويشير الأستاذ العقاد إلى أن سلوك عبد الله فكري في الخواص خاتماً كان صدى لشارات الكتاب ذو المناصب الوزارية في أيام العباسين ، ومن حذا حذوه من الفاطميين والأيوبيين.

(٣)

توفي والده وهو لم يتجاوز الحادية عشرة، وتولى بعض أقاربه أبيه تربيته، وكان قد بدأ يتعلم القرآن الكريم فأتقنه وجوده، ثم طلب العلم في الجامع الأزهر الشريف، ودرس العلوم المتداولة: اللغة والفقه والحديث والتفسير والعقائد والمنطق؛ وكان من أساتذته: الشيخ إبراهيم السقا، والشيخ محمد عليش، والشيخ حسن البلتани .

وقد تلقى بالتوازي لدراسته في الأزهر دروساً في اللغة التركية حتى أتقنها، وقد ساعده على إتقان التركية أن والدته كانت كما ذكرنا من بلاد المورة .

وقد أهلته تعليمها المتميز لأن ينال وظيفة في القلم التركي فيها سمي بالديوان

الكتخدي، وظل بعد نواله هذه الوظيفة مواصلاً طلب العلم في الأزهر فيما قبل ذهابه للعمل في الديوان وبعد رجوعه منه.

وقد كان هذا النموذج من عارفي اللغتين العربية والتركية مطلوبًا في دولة محمد على وخلفائه، لذلك كان عبد الله فكري مؤهلاً من البداية للوصول إلى المناصب الرفيعة، غير أن هذه المناصب لم تكن هي السبب في شهرته، فقد كانت له مواهب خاصة جعلته أديباً شاعراً كاتباً، كما أنه كان يتقن اللغة الفارسية أيضاً إلى جانب العربية والتركية.

(٤)

أجاد الأستاذ العقاد تصوير البيئة التي نشأت فيها موهبة عبد الله فكري، وأرجع هذا إلى ما شهدته القاهرة من قيام إمارة حديثة في أوائل القرن التاسع عشر، وأن هذه الإمارة (يقصد إمارة محمد علي وأولاده من بعده): «قامت معها دواوين شتى بعضها للحكم والسياسة، وبعضها للكتابة والتعليم وما اقتضاه هذا من عودة الذكري بالأدباء من طلاب الوظائف الديوانية إلى متأثرات القاهرة في عهد صلاح الدين وإخوانه من ملوك الدولة الأيوبية، وأصبح القاضي الفاضل وابن مطروح وبهاء الدين زهير قدوة مأمولة لكل موظف أديب متطلع إلى رئاسة الإنشاء، وما إليها من الدواوين العالية، وأصبحت الرسالة المسجوعة والطرائف المنظومة وحل الألغاز ووصف البساتين والنفائس والرياضات التي تعودها السرة القاهريون وشاع النظم فيها بين الأدباء من عهد الدولة الأيوبية، عنواناً لظرف الظريف، وسمت الوزير الناثر، وشارفة النديم المصاحب للملوك والأمراء، ونشأ بين وزراء المصريين طائفة تشبه وزراء الأيوبيين والعباسين من قبلهم في النشأة والثقافة والمرءة والمكانة. فهم إما معلمون لولاة العهود، أو كتاب ومشيرون لأصحاب العروش».

«وهو لاء الأدباء الوزراء أو المتطلعون إلى مناصب الوزارة والرئاسة هم الذين طولوا أيام البقاء لأدب «الرسائل والجنسات والألغاز» حتى قضت عليه مدرسة الداعين إلى العربية الأولى، ومدرسة الداعين إلى أدب الطبع في وقت واحد، لأن أدب الرسائل والجنسات والألغاز كان هو الأدب المختار عند أمثال القاضي الفاضل، وابن مطروح، والطبقة التي تماضت بعدهم على هذه الطريقة، وكانت هذه الطبقة قدوة «الديوانين» من أدباء الإمارة الحديثة».

(٥)

على هذا النحو نستطيع أن نفهم البدايات التي صادفها عبد الله فكري وهو يكون نفسه لمجد متوقع أو أمل مطروح إليه في وظائف الدولة وفي كيانها.

وقد تنقل عبد الله فكري ما بين الديوان الكتخدي ثم ديوان المحافظة ثم ديوان الداخلية بصفة مترجم، ثم الحق بالمعية السننية في عهد سعيد باشا، وبقي فيها حتى تولى الخديو إسماعيل الحكم فأبقياه في معيته وسافر معه إلى الآستانة في زيارته التي استهدفت تغيير قاعدة تقليد الولاية وأداء الشكر للحضرمة السلطانية، كما رافقه في أكثر رحلاته، كما سافر إلى الآستانة أكثر من مرة مع الخديو، وسافر أيضاً مع أسرته، وفي مهام أخرى، وقد نال الرتبة الثانية مع لقب بك.

وفي عهد الخديو إسماعيل أيضاً اختير عبد الله فكري مدرساً لأمراء الأسرة الحاكمة (!!) ومنهم ولـي العهد (محمد توفيق) وأخواه حسن وحسين وغيرهم من أمراء أسرة محمد علي، وبذلك أصبح يدخل من باب قصر عابدين، وأصبح من أقرب المقربين للخديو. وسرعان ما أصبح أستاذ الأمـراء ومعلـمـهم واحدـاً من كبارـ المـعلمـينـ فيـ عـصـرـهـ . وكان الخديـوـ قدـ قـلـدـهـ المسـؤـولـيـةـ عنـ الدـرـوـسـ الشـرـقـيـةـ،ـ وهـيـ الـعـرـبـيـةـ وـالـتـرـكـيـةـ وـالـفـارـسـيـةـ . وكان عبد الله فكري يتولى مهمة التعليم بنفسه أحياناً، وفي أحيان أخرى كان يقوم بمراقبة غيره من المعلمين وملحوظة إلقاء الدروس وتقويم طريقة التعليم.

(٦)

وبعد فترة من عمله في المعية نُقل للعمل في ديوان المالية ، لكنه لم يعين في وظيفة محددة، بيد أنه سرعان ما عهد إليه بالنظر في تقييم الاستفادة من الكتب التي كانت محفوظة في الديوان على ذمة الحكومة، وبعد دراسة هذه الكتب رفع تقريراً مفصلاً ضمنه بيانها وما رأه في حالها ، وذكر في تقريره أن بقاءها على حالتها لا يمكن من حفظها، ولا من الاتفاع بها، وأشار بلزم جعلها على هيئة يتتفع بها الناس إما بإنشاء «حمل خاص» نقل إليه ويجعل فيه ما فيه الكفاية لها من الخزائن وتوضع به على الوضع الموافق، وإما بإحالتها على المدارس لتودع في المكتبة الجاري إنشاؤها بمساعي المرحوم على باشا مبارك

ناظر المعارف إذ ذاك»، وقد حبز الوجه الثاني، وهكذا كان له فضل كبير في استنقاذ تلك المجموعة من الكتب النفسية من زوايا الخمول والإهمال، وترتيبها ترتيباً حسناً في دار الكتب الملكية الشهيرة.

وفي هذه الفترة كان المجلس الخصوصي إذ ذاك (وهو ما صار بعد ذلك مجلس النظار) يعمل في جمع اللوائح والقوانين وتنقيحها وتعديلها، فعهد إلى عبد الله فكري بالمساعدة في ذلك العمل فتسليم القوانين واللوائح التركية وأخذ في إعادة صياغتها وتنقيحها، وقد أثبتت نجاحاً في هذا العمل، أضاف به إلى قدراته الأدبية وإلى دوره في خدمة أسلوب الكتابة العربية وتوطنته للحضارة.

(٧)

وفي ١٨٧١ كان أول عهد عبد الله فكري بالعمل في إدارة أمور التربية والتعليم، حيث عين وكيلاً لديوان المكاتب الأهلية تحت رئاسة على باشا مبارك، وفي هذه الفترة ظهرت مواهبه وتأكدت: موظفاً متيقظاً نشيطاً، عارفاً بكل صغيرة وكبيرة، وكأنما كانت هذه الفترة فرصة إعداد وتدريب ليكون ناظراً أو وزيراً للمعارف على نحو ما حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً على عشر سنين.

وفي هذه الفترة بدأت علاقته بعلى مبارك، وهي العلاقة التي ظلت وثيقة.

وقد تأثر عبد الله فكري بأفكار على مبارك في التعليم قبل أن يعرف الشيخ محمد عبده ويطعم أفكاره بأفكاره، وفي هذه الفترة أصبح عبد الله فكري بمثابة الرجل الثاني بين رجال الدولة المسؤولين عن المعارف، وكان على باشا مبارك يعد في ذلك الوقت «أبا للتعليم» في مصر.

ويذكر لعبد الله فكري نجاحه في رفع مستوى المكاتب الأهلية في عهد وكالته لديوانها، كما يذكر له تعديله لبراجها بعد أن كانت نوعاً من الكتاكيت، وهو ما أدى إلى إقبال الناس على إدخال أبنائهم فيها، لأنهم وجدوا فيها شيئاً جديداً مفيدة لم تألفه البلاد من قبل.

وقد لخص الشيخ محمد عبده الإشادة بجهد عبد الله فكري في هذه الفترة حيث يقول: «وكانت المكاتب أول ما تولاها (الضمير يعود على عبد الله فكري) في أدنى درجة من

النظام، ولم تكن إلا من النمط الذي يسمى الآن كتاتيب، ثم ارتفت في عهده إلى أن صارت حافلة بمبادئ العلوم النافعة، خصوصاً العلوم العربية التي رفع منارها وأعلى شأنها، وجعل أسلوب تعليمها على الطريقة المؤدية إلى الغرض من دراستها، فوضعت القوانين لسير التعليم في تلك المكاتب، ورتبت دروسها على الوجه الموصى إلى الغاية منها، ورسخت في الانظام قواعدها، وظهرت لل العامة والخاصة فوائدها، وأقبل الناس عليها وانثالوا بأبنائهم إليها، حتى أصبحت حافلة بالتلامذة، يتولى أدبهم أفضل الأساتذة، وصارت مادة غذاء للمدارس الأميرية (يقصد أنها صارت رافداً من رواد تغذية هذه المدارس بال المتعلمين المستحقين للتعلم)، وسلمها يرقى عليه إلى المدارس الخصوصية».

(٨)

وفي ١٨٧٦ عين عبد الله فكري وكيلاً لديوان المعارف العمومية، وكان ناظرها حينذاك هو رياض باشا، وقد حقق محمد عبد الغني حسن تاريخ توليه هذا المنصب مصححاً ما ذكره جورجي زيدان، وتابعه فيه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن عبد الله فكري عين وكيل للمعارف (١٨٧٩)، وقد نقل المورخان العظيمان (زيدان والرافعي) هذا عن كاتب سيرة عبد الله فكري في مجلة «المقتطف» (١٨٩١)، ولكن محمد عبد الغني حسن اكتشف أن هذا يخالف دليلاً تاريخياً آخر قوياً، وهو أن عبد الله فكري كتب بحثه عن «العلوم الطبيعية والتصوص الشرعية» في الجزء العاشر من السنة الأولى من المقتطف (١٨٧٦)، وقدمنت المجلة للبحث بأنه «من قلم وكيل رياض باشا في نظارة المعارف، العالم الشهير عبد الله فكري».

ومن الإنصاف أن نضيف إلى التصحيح تصويباً آخر وهو أن المعارف في ذلك الوقت كانت ديواناً إذا لم يكن مجلس النظار قد تأسس إلا في ١٨٧٨.

وهكذا يعود الفضل في اختياره وكيل للمعارف إلى مصطفى رياض باشا حين كان ناظراً لها (١٨٧٦)، وهو الذي اختاره وكيل للمعارف، وإن نسب هذا الفضل خطأ إلى علي مبارك، وليس هذا بخطأً كامل كما صوره الأستاذ محمد عبد الغني حسن، وإنما هي معلومة لها نصيب من الصواب ، فقد كان عبد الله فكري وكيلًا لمصطفى رياض في ديوان المعارف كما كان وكيلًا لعلي مبارك في نظارة المعارف ، وما يسهل الاختلاط في مثل هذا

الأمر أن عبد الله فكري عمل من قبل وكيلًا لعلى مبارك في إدارة المكاتب، كذلك فإنه أصبح وكيلًا للمعارف في عهده حين أصبح على مبارك باشا ناظرًا للمعارف (أغسطس ١٨٧٨)، عند بداية تشكيل النظارات المصرية وقد كان عبد الله فكري لا يزال وكيلًا للمعارف فاستيقاه في هذا الموقع، وهو الذي كان قد عمل معه وكيلًا للمكاتب من قبل، وهكذا جمع العمل بين الرجلين الكبارين مرة أخرى، كما جمعت بينهما الصداقة المتجددة.

وفي هذه الفترة نال عبد الله فكري رتبة مير ميران الرفيعة.

(٩)

وفي مارس ١٨٨١ صدر مرسوم بإنشاء المجلس الأعلى للمعارف وتحددت مهامه في إبداء الرأي فيما يخص سياسة التعليم ومشروعاته، وإنشاء المدارس الجديدة، وتنظيم المدارس عامة.

وقد تشكل هذا المجلس برئاسة ناظر المعارف حينذاك على باشا إبراهيم (وهو ذلك الوزير القديم الذي يطلق عليه كاتب هذه السطور في تحقیقاته التأريخية اسم علي باشا إبراهيم الأول وذلك تمييزاً له عن علي باشا إبراهيم (الثاني) رائد الطب المصري الحديث)، وعضوية أربعة وعشرين عضواً من رجال العلم والفكر والأدب والدين والقضاء والطب والمعلمين، واختير عبد الله فكري باشا، وكيل وزارة المعارف عضواً في هذا المجلس، وكان من أعضاء المجلس: على مبارك باشا، وكان يشغل حينذاك منصب ناظر الأشغال العمومية بعد أن ترك المعارف التي كان يجمع بينها وبين الاشتغال.

والواقع أن اشتراك عبد الله فكري في هذا المجلس الجديد قد أعده. بجانب عمله في وكالة المعارف للإسلام الواسع بحاجات التعليم في البلاد، وفي وضع التصور الكفيل بالارتقاء بالحياة التعليمية لمصر على نحو ممكن من خلال الموارد المحدودة والرغبات الطموحة إلى التقدم.

فلما جاءت وزارة محمد سامي البارودي الشاعر الفارس الأديب، وكان عليه وعلى مؤيدي عرابي أن يختاروا من الوزراء من يطمئن إليهم قادة الحركة الوطنية، مع مراعاة

الأزهر باعثاً لشراة النهضة العربية

إرضاء الشعور الوطني الذي أخذ يظهر بشكل واضح بعد أزمة يناير (١٨٨٢)، وبعد ذكرى إنجلترا وفرنسا إلى مصر كان اسم عبد الله فكري في قائمة المرشحين للوزارة، واستقر رأي النواب الخمسة عشر الذين اجتمعوا في سراي البارودي، على الوزراء الذين رئي إدخالهم في الوزارة، وكان بينهم عبد الله فكري الذي اختير لتولى وزارة المعارف (٤) من فبراير (١٨٨٢ م).

(١٠)

ومن الجدير بالذكر أن عبد الله فكري نفسه اختار لوكالة الوزارة [في عهده هو كوزير] على فهمي رفاعة باشا، الذي هو ابن الشيخ رافع الطهطاوي، وكان على رفاعة باشا رجالاً من البارزين بعلمهم وشخصهم، ولم يكن غريباً على عبد الله فكري ولا جديداً عليه، فقد عقد الود بينهما أمتن أواصره، وقد حفظ التاريخ رسائل إخوانية للرجلين تدل على صدق المودة، وارتفاع الكلفة، وقد زادت هذه المودة بعدما جمعهما العمل الواحد في وزارة واحدة.

(١١)

وقد تعددت الروايات في شأن حقيقة موقف عبد الله فكري من الثورة العربية، وهو الذي كان واحداً من وزراء الثورة، ونحن نميل بعد أن فحصنا هذه الروايات إلى ما رأه محمد عبد الغني حسن بعد تحقيق من أن عبد الله فكري لم يكن عرايضاً، ولا من أنصار عراقي، وإنما كان محل ثقة العرابيين، وربما يرى بعض القراء غرابة في مثل هذا الرأي فكيف لوزير في وزارة الثورة أن يكون بعيداً عنها أو متحفظاً عليها، ولست أحب أن أدعى القدرة على الوصول إلى ما لم يصل إليه أحد، وقد سبقني الأستاذ محمد عبد الغني حسن إلى تحقيق الأمر على نحو دقيق، لكنني أكتفي بأن أذكر القراء على سبيل المثال أن مصطفى فهمي باشا (والد صفية زغلول زوجة سعد زغلول) الذي كان معروفاً على أنه رجل الإنجلiz كان وزيراً في هذه الوزارة!! وزارة الثورة العربية.

(١٢)

ومن الواضح أن عبد الله فكري لم يكن من أعداء الثورة العربية، ولا من المتأمرين عليها، وإنما كان أقرب إليها من كثرين، بل كان مؤيداً لتجهاتها، وقد نال ثقة العربين مرة واثنتين وثلاثة، وقد جاءته هذه الثقة كرجل وطني لاشك في وطنيته كما جاءت بداياتها نتيجة اختبار فرضته الظروف والحوادث فيها قبل الثورة، وكان هذا الاختبار هو موقفه من التحقيق مع الشيخ محمد المهدى شيخ الأزهر.

ولهذا قصة، فقد كان غرض العربين في وزارة شريف أن يتخلصوا من معارضتهم ومخالفتهم في سياساتهم حتى يخلو الجو لهم ، وكان الشيخ محمد العباسي المهدى شيخ الجامع الأزهر على رأس المعارضين لهم، والتمس العربيون الأسباب لعزل الشيخ من المشيخة، وأخذوا يكثرون من الشكایات التي اصطنعواها من رجال الأزهر حول نظام الامتحان لإجازة العلماء بالتدريس، وكأنهم كانوا لا يريدون وضع أي نظام لتخرج العلماً مكتفين من العلماء بالحضور على نحو ما يحدث في المدارس العسكرية، ولم يكن هذا في مصلحة الأزهر ولا العلم، لكن طغيان السياسة كان كفياً بأن يساعد هؤلاء على أن يقلدوا محاسن الرجل إلى عيوب.

وقد ألفت الحكومة لجنة للتحقيق برئاسة أحمد رشيد، وعضوية ثلاثة من الباشوات كان عبد الله فكري أحدهم، فلم تر اللجنة في شكاوى العلماء ضد شيخهم إلا الافتعال والاصطناع، لكنها رأت حسماً للتزاع، وصداً لتيار الدسائس ضد شيخ الأزهر أن تبقىه في منصب الإفتاء، وأن تسند مشيخة الأزهر إلى عالم آخر، وبالطبع لم تصرح اللجنة بعزله من المشيخة، لكن إسناد المشيخة إلى غيره يعني أنها قد صرفت عنه، أو صرف هو عنها.

وفي نظر محمد عبد الغني حسن أن قرار اللجنة التي ضمت عبد الله فكري كان قراراً على الكياسة، وتوجيه الحكمة، «فلم يكن من المقبول أن تقف اللجنة أمام تيار لم تكن قادرة على الثبات فيه، فقد كان عراقي يومذاك وكيلاً لوزارة الحرية، وكان له رأي في تشكيل الوزارة الشريفية الثالثة، وكان ثملأ بخمر الانتصار، فلم يكن من الفطنة الوقوف أمام رغباته».

وهكذا قدر لعبد الله فكري أن يثبت، في مرحلة مبكرة، قدرته على الوصول إلى حل

وسط يكفل للثوار مظهر الانتصار دون أن يتجلّى كثيراً على الحقيقة، وعلى المصلحة الحقيقة.

(١٣)

ومن المهم أن نتناول الدور الذي لعبه عبد الله فكري كوزير للمعارف على الرغم من قصر فترته في هذا المنصب.

يذكرنا الأستاذ عبد المنعم شميس في كتابه «عظماء من مصر» بأن محمد عبده فيلسوف الثورة كان يدعو إلى تحقيق التعليم قبل تحقيق الديمقراطية، وهو الذي كان يقول: «إن الشعب الجاهل لا يستطيع انتخاب مجلس النواب الذي يمثله تمثيلاً صحيحاً»، وذلك على النقيض من فكرة أحمد عرابي الذي كان يقول: «إن إسقاط الطغيان والاستبداد لا يتم إلا عن طريق مجلس النواب الذي يمثل الشعب». وقد كان عبد الله فكري (على نحو ما حققه الأستاذ عبد المنعم شميس بالتفصيل في كتابه «عظماء من مصر») بمثابة البطل في أول مناقشة برلمانية تناولت سياسة التربية والتعليم في مصر، وكانت رؤيته التربوية والتنموية التي أبانت عنها هذه المناقشة في متنه الواضح.

وتبدأ القصة البرلمانية المشرفة لتاريخ الحياة السياسية المصرية عندما تقدم عبد السلام المويلحي نائب القاهرة إلى حكومة البارودي باشا (١٨٨٢) بمبادرة عن إجراءاتها من أجل توسيع دائرة المعارف العمومية في مصر، وركز المويلحي على ثلاثة أسئلة:

- ١ - بيان المدارس الأميرية الموجودة في مصر في ذلك الوقت.
- ٢ - بيان عن المدارس التي يمكن لوزارة المعارف إنشاؤها في هذا العام (١٨٨١ / ١٨٨٢) من المدرج في ميزانيتها.
- ٣ - بيان ما يمكن تخرجه من مدرسة المعلمين خلال العام ، وحتى اجتماع مجلس النواب في السنة القادمة.

وقد كانت هذه المناقشة «فرصة التاريخ»، إن صح هذا التعبير، التي أتيحت لعبد الله فكري وزير المعارف ليبين عن رؤيته التربوية، وما يحسب له أنه لم يقدم لمجلس النواب

إجابة تقليدية عن الأسئلة المطروحة، وإنما أضاف إلى إجابته رؤية ذكية كفيلة برسم سياسة مستقبلية للتعليم في مصر، ولم يخرج عبد الله فكري من قاعة مجلس النواب إلا بعد أن أخذ موافقة البرلمان الإجماعية على سياسته، لكن الحوادث السياسية كانت كفيلة تماماً بتجميد هذه السياسة بعد ما انتصرت الإمبراطورية البريطانية المعادية على مصر بعد ثلاثة شهور (!!)

(١٤)

ومن المهم أن تتأمل هنا جوهر الفكرة التي طرحتها عبد الله فكري على البرلمان حين كان ناظراً للمعارف في وزارة الثورة العربية (١٨٨٢).

قال عبد الله فكري موجهاً حديثه للبرلمان:

«إن الحكومة لا تستطيع بناء المدارس المطلوبة لتعليم أبناء الشعب وبناته، وأنه «إذا أنشأت الحكومة في السنة أربع مدارس بل خمساً بل عشرابل في كل شهر مدرسة، لزمكم على تلك الحالة أن تنتظروا الحصول هذا الغرض نحو خمسة سنّة».

وبعد أن أجاد عبد الله فكري تصوير حجم القضية وعجز الموازنات الحكومية عن الوفاء بالخطط المرجوة، انتقل إلى طرح خطته القائمة على توزيع النفقات بين الأهالي والحكومة واستغلال الإمكانيات المتاحة من أجل النهوض بالعملية التعليمية، وبدأ بأن طالب النواب والأعيان والأغنياء بإنشاء المدارس في بلادهم وقرائهم، وبرر هذا بقوله: إن «إيجاد المدارس على نفقة الأهالي لا يكلفهم غير جزء صغير من المصارييف، فالطوب يضرب في البلد، ويحرق في البلد، وبينى بمعرفة بنائين وفعلة منها، ولا يخفى ما في ذلك من قلة النفقات».

(١٥)

وفي الجلسة ذاتها قدم عبد الله فكري لأعضاء مجلس النواب نموذجاً لرسم هندسي لمدرسة من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وقال للنواب: «أعرضه عليكم مثلاً، وفي الجيزة مدرسة من الدرجة الأولى، وفي قليوب مدرسة من الثالثة جعلت في تلك الجهات الواقعه على خط السكة الحديد ليسهل معايتها، وتكون كل منها نموذجاً لنوعه».

وهكذا سهل الوزير على النواب تخيل الصورة التي ستكون عليها المدارس التي أعدت رسومها، وطالب النواب بمشاهدة هذه النماذج وقال: «إنه يمكن بناء مدارس بتكليف أقل، ولو بالطوب الأخضر، لأن القصد المفعة وليس الوجاهة».

ثم انتقل عبد الله فكري ليضع حلولاً لكل المشكلات التمويلية الأخرى بما في ذلك تعيين المدرسين ورواتبهم، وقد اقترح في خطته أن يكون المدرس من أهل القرية مثل خطيب المسجد أو غيره من الأزهريين، على أن تتحمل الحكومة راتبه، وجعل الراتب بين ٢٠٠ قرش و٣٠٠ قرش (وكان هذا الراتب مجزياً بمعدلات ذلك الزمان). وحدد المواد التي تدرس في هذه المدارس وهي: القرآن والإملاء، والمطالعة، والحساب، وبعض العلوم الطبية (كذا في النص المتاح عن تلك المناقشات، ويبدو أن سطوة الأطباء لم تكن قد وصلت إلى إجبار الوزارة على أن يكون اسم هذا النوع من المعرفة العلوم الصحية فحسب).

(١٦)

ويفضل جهود عبد الله فكري قرر مجلس النواب المصري في جلسة ٢٠ من أبريل ١٨٨٢ سياسة الدولة في هذا الشأن على نحو واضح:

«إن الحالة التي وصلت إليها البلاد بهمة ذوي النجدة والغيرة من أبنائها (كان المقصود من هذه العبارة الحزب العسكري الذي بدأ السيطرة على مقدرات الأمور، وهو حزب أحمد عرابي) تستدعي الاجتهداد في تعليم التعليم وتسهيل طرقه، فقررت أن يقوم كل واحد من النواب بإنشاء مكتبة (مدرسة) من الدرجة الثالثة في بلده تعلم فيها القراءة والكتابة وطرف من الحساب والفقه والنحو بدون أن تتكلف الحكومة بشيء من النفقات سوى أن تتنازل عن الموضع الذي تبني فيه من البراح (أي الأرض الفضاء) الباقي تحت ملكها. أما الذين يعهد إليهم في تلك المكاتب (المدارس) فيؤخذون بواسطة نظارة المعارف من الجامع الأزهر، وعلى النظارة ترشيحهم للقيام بهذه الوظائف كما سبق ذلك في خطبة ناظر المعارف أمام هيئة المجلس، وكما قررت عليه اللجنة أيضاً».

وقد طالب على بك القريعي نائب المنصورة بطبع رسومات وتقديم نسخة لكل عضو لتنفيذها.

ويذهب الأستاذ عبد المنعم شميس من هذه الرواية إلى أن عبد الله فكري كان بهذا أول من أعلن حق التعليم في مصر منذ مائة عام.

ويذكر أن عبد السلام المويلحي (مقدم السؤال) علق على كلمة عبد الله فكري وزير المعارف في البرلمان قائلاً:

«نشكر لسعادة ناظر المعارف العمومية اهتمامه بالأسئلة الواردة في تقرير هذا العاجز (يتحدث عن نفسه بتواضع)، فإنه قد استوفى الإيضاح، واستكمل البيان بما نعلم في سعادته من الفضل وقوة العالمية (أي: المعرفة والإحاطة)، وإنى على رأي سعادته من أن التوكل (أي: الاعتماد) المطلق على الحكومة في نشر المعارف في البلاد لا يأتي بالفائدة المقصودة، بل لابد في هذا الأمر من تآزر الهمم، واجتماع الإرادات، واتحاد المساعي من كل حريص على نجاح وطانه، راغب في تقدم أبنائه وإخوانه».

(١٧)

وفييل نهايات الثورة العربية، رأى مجلس الوزراء دعوة مجلس النواب للنظر في الخلاف القائم بين الحزب العسكري بقيادة عرابي والخديو توفيق.

ولم يكن كل الوزراء مؤيدن فقد عارض هذا الرأي كل من : عبد الله فكري وزير المعارف، وعلى صادق وزير المالية، ومصطفى فهمي وزير الخارجية، وهم الوزراء الذين لم يكن لهم ميل حزبي واضح، ولم يكونوا من أنصار العرابيين، وهذا لم تكن موافقة مجلس الوزراء بالإجماع، بل كانت بالأغلبية. وإلى هذا الموقف الذي اتخذه عبد الله فكري وزميلاه فيما يتعلق بالدعوة إلى نهاية انعقاد مجلس النواب، استند عبد الله فكري محاولاً تبرئته في أثناء محاكمة العرابيين، بعد إخفاق الثورة، ودخول جيش الاحتلال البريطاني مصر».

وعلى كل الأحوال فقد أقيل عبد الله فكري من منصبه كوزير للمعارف مع سائر زملائه الوزراء عند نهاية الثورة ودخول الاحتلال.

وهكذا اقتصر عهده في تولي وزارة المعارف على وزارة البارودي التي هي وزارة الثورة العربية .

(١٨)

أخذت الحكومة في محكمة زعماء الثورة العرابية وكان عبد الله فكري بالطبع من قبض عليهم، وبعد استجوابه أمام لجنة التحقيق أطلق سراحه بعد تبرته، وتذكر بعض المصادر أن معاشه أعيد إليه مباشرة لكن أكثرها تذكر أن السلطات قطعت عنه معاشه (!!) وهو الأقرب إلى المتنطق لما نعرفه نحن عن اضطراره إلى نظمه قصيدة اعتذار للخديو، وقد قيل إنَّه التمس المثول بين يدي الخديو توفيق، فلم يؤذن له، وأنه لهذا ظهر قصيدة اعتذار ومديح للخديو، وقد حرص فيها على أن يبين براءة ساحتة، وقد نحا في قصيده منحى قصيدة النابغة الذبياني في اعتذاره، ومن الطريف (كما سنرى) أنَّ الأستاذ العقاد يعتبر هذه القصيدة من أفضل شعره.

وقد جعل عبد الله فكري عنوان قصيده: «عريضة استعطاف واسترحام لولي الأمر والإنعام»، وقال في استهلال استرحامه واستعطافه:

وكبر إن وافيت واجتب الكبرا	كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى
قبولاً، وقبل سدة الباب لي عشرة	وقف خاصعاً واستوهد الإن والتمس
لذي أمل يرجوه البشر والبشرى	وبلغ لدى الباب الخديوي حاجة
صفوح عن الزلات يتلمس العذرا	لدى سمح مؤمل
إذا طاش ذو جهل لدى غبظه قهرا	تنوء الجبال الراسيات لحمله
فيرحم من في الأرض رفقا بهم طرا	يراقب رحمن السموات قلبه
ومنْ أرجخي آلاء معروفة العمرا	مليكي ومولاي العزيز وسيدي
بأمر فقد جاؤوا بها زوروا انكرا	لسنْ كان أقواماً على تقولوا
وبالباب والميزاب والкуبة الغرا	حلفت بما بين الحطيم وزمز
ولا كنت منْ يبغى مدى عمره الشرا	لا كان لي في الشر باع ولا بد
بما الله في أم الكتاب له أجرى	ولكن محتوم المقadir قد جرى

وهو يحاول أن يعلل انسياقه إلى تأييد العربين بميله (المشهور عنه) إلى الخير :

أذكر يا مولاي حين تقول لي	أراك تروم النفع للناس فطرة
واني لأرجو أن ستنفعني الذكرى	عفوا أبا العباس لازلت قادرًا
لديك ولا ترجو لذى نسمة ضرا	وحسي ما قدم من ضنك أشهر
على الأمر إن العفو من قادر أخرى	يعادل منها الشهر في الطول حقبة
تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا	أيميل في دين المروءة أنتي
ويعدل منها اليوم في طوله شهرا	
أكابد في أيامك البؤس والعصرا	

وسوف نسمى هذه القصيدة الاستعطافية في كتابنا هذا بقافيتها الرائية ، ذلك أنها واحدة من قصيدين ، وهي الأولى ، أما الثانية فقصيدة ميميةنظمها عبد الله فكري لما استجاب له الخديو توفيق وعفا عنه، وأعاد إليه معاشه، وفيها قال:

فشكرا الآلاء الخديوي المعظم	ألا إن شكر الصنع حق لنعم
على كل منهل من السحب مرهم	مليك له في الجود فخر ومفخر
يراعي أو استولى على منطقى فمي	أشكره النعماء ما عانقت يدي

(١٩)

وواقع الأمر أن فشل الثورة العرابية كان بمثابة نهاية لحياة عبد الله فكري السياسية والوظيفة مع أنه لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره !!

وقد تركزت مناشط حياته بعد الثورة في ميدان العلم بعيدا عن السياسة، فنوجه إلى الحججاز لأداء فريضة الحج، وفي أثناء هذه الرحلة لقي من علماء مكة والمدينة ما يليق بمقامه من الإكرام والإعظام، وكتب في ذلك كتابا سماه «الرحلة المكية».

وانصرف عبد الله فكري بعد عودته إلى ما كان قد شرع فيه من العلم والرحلات ورعاية الأرض واستصلاحها، وحفظ لنا التاريخ ما سجله عن رحلاته، وربما تبدو رحلاته بمنطق أيامنا قليلة أو محدودة الطاق، لكنها بالنسبة إلى عصره تؤهله لأن يوصف

بأنه كان من أصحاب الرحلات.

(٢٠)

وقد فصل جورجي زيدان القول في رحلاته في تلك الفترة فذكر أنه في السنة التالية زار بيت المقدس والخليل ، وكان بصحبته نجله المرحوم أمين باشا فكري فلقي من العلماء ، والعظاء هناك ما يمجد بفضلهم، ثم «سارا إلى مدينة بيروت الزهراء لتبدل الهواء وأقاما فيها شهراً كان مقامهما فيها منتدى الفضلاء ، ومشروع الأدباء والعلماء ، ثم ارتحل إلى دمشق فلاقى فيها ما لاقاه في بيروت من الاحتفاء وحسن الوفادة ، ثم عرج إلى بعلبك فزار آثارها ، وسار منها بطريق لبنان إلى بيروت فأقام فيها شهرین وعاد إلى مصر».

(٢١)

ولما كان العصر الذي عاش فيه عبد الله فكري عصر معرفة بأقدار الناس وكفاءاتهم، فقد وقع عليه اختيار الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمي المصري إلى مؤتمر المستشرقين الثامن ، الذي انعقد في مدينة إستكهولم ، وقد صحبه في هذه الرحلة أيضاً نجله أمين باشا فكري عضواً في هذا الوفد ، وهو الذي تولى الترجمة والاتصال بين الوفد والوفود الأخرى ، ويذكر محمد عبد الغني حسن أن الوفد ضم بالإضافة إليها كلاً من الشيخ حمزة فتح الله ، والأستاذ محمود عمر ، وكانت هذه أول وآخر زيارة لعبد الله فكري لأوروبا ، وقد نظمت رحلته بحيث مكتته من خلال ذهابه وعودته من زيارة عدد من عواصم أوروبا في النمسا ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وسويسرا ، والدنمارك ، والسويد ، والنرويج ، وألمانيا . وقبل سفر الوفد من الإسكندرية منح الخديو عبد الله فكري التি�شان المجيدى من الدرجة الثانية .

(٢٢)

ويكاد وصف خط سير رحلته يكون واحداً في كل المصادر التي لخصت هذه الرحلة: « وقد مر الوفد في وفاته المذكورة على تريستا من أعمال النمسا (كانت كذلك في ذلك الوقت) وفيensiا (البنديقية) ومilanو من أعمال إيطاليا ، ولوزان (لوسرن) من أعمال سويسرا ، وباريis التي أقام بها أكثر من عشرين يوماً (وفي رواية أن إقامتهم امتدت ثمانية

عشر يوماً كاملة فقط) قضاها في السياحة بالمدينة وضواحيها، وكان وقت المعرض فشاهد ما فيه من عجائب الصنائع، وغرائب الفنون، ثم انتقل إلى لندن ومنها إلى روتردام ولاهاي في هولندا، وليدن، وزار مكتبتها الشهيرة ورأى مطبعتها المعروفة بالمطبوعات الشرقية، ثم توجه منها إلى كوبنهاجن عاصمة الدنمارك، ومنها إلى إستكهولم حيث انعقد المؤتمر».

وفي طريق العودة من مأموريته مرّ على برلين عاصمة ألمانيا وفيينا عاصمة النمسا، فلقي بها ما لقيه في العواصم الأخرى من الاحتفاء.

وقد كان من حظ هذه الرحلة الجميلة أن تحظى بالتسجيل، وقد بدأ عبد الله فكري نفسه في تسجيلها لكنه انشغل عن تسجيلها وإتمام كتابتها إلى أن توفي، وعند ذاك عنى نجله بنشرها في كتاب مشهور طبع في مجلد ضخم بمصر سنة ١٨٩٢ وهو كتاب «إرشاد الألبا إلى محسن أوروبا»، وقد أعددت هذا الكتاب للنشر ضمن مشروع رائد تقوم به مكتبة الإسكندرية بإشراف الصديق الدكتور صلاح الجوهرى.

ولا ريب في أن مباحث أوروبا وحضارتها قد دفعت عبد الله فكري وابنه أمين باشا إلى أن يسجل محسنها منذ اللقاء الأول مع هذه الجماليات، وقد أشار الرجالان (الأب والابن) في رسائل إلى الأصدقاء إلى ما شاهدهما من جمال الطبيعة في جبال إيطاليا وسويسرا وبحيراتها والأتفاق العجيبة، مثل نفق سان جوتار، كما أخذ عبد الله فكري يملي على ابنه أمين باشا ما يعن له من هذه المشاهدات.

ويذكر لنا التاريخ أن عبد الله فكري ما كاد يصل إلى مدينة لوزان حتى أرسل إلى صديقه العالم الرائد على مبارك باشا رسالة طويلة يصف فيها البحر والسفينة، والبحيرات السويسرية الجميلة، ولم يفته أن يصف الأوانس (الصباح الملاح، من كل خود رداع، شاكية السلاح، من الحافظ كالصفاح، مراضن صحاح، وقدود كالرماح، دامية الجراح، فاتكة بالأرواح !!).

والحق أن إسهامات عبد الله فكري في أدب الرحلات كانت إسهامات بارزة ومبكرة ،

الأزهر باعثاً لشراقة النهضة العربية

وقد خصصنا لدراستها فصلاً آخر في موضع آخر عنينا فيه تتبع آثاره في الرحلة المكية ، والرحلة البعلبكية ، ثم الرحلة الأولى .

(٢٣)

ونحن نلاحظ أيضاً فيها كتبه أمين فكري عن رحلة والده عبد الله فكري وأقرانه أنه هو وزملاؤه كانوا حريصين على زيارة باريس زيارة فاحصة، ونستطيع أن ندرك هذا من الورقة الأولى عندما نطالع عدد الصفحات التي استغرقها الحديث عن باريس وتفصيل مشاهداتهم فيها يوماً بيوم، وعلى حد ما وصف عبد الله فكري وابنه رحلتهم فإنهم: «لم يتركوا أثراً إلا شاهدوه، ولا معرضاً ولا متحفاً إلا زاروه، ولا قصراتاريخياً إلا طافوا بأرجائه، ولا مصنعاً من أكبر المصانع إلا جالوا في أنحائه، فزاروا قصر فرساي، وغابة بولونيا، ومتحف اللوفر، ودار الأوبرا، وحدائق لوكسمبور، ومعامل سيفر الشهيرة بصناعة الخزف الصيني الممتاز، والمكتبة الأهلية... إلخ».

ومن الطريف أن عيد الأضحى حل في يوم ٧ من أغسطس سنة ١٨٨٩ م خلال مقامهم بالعاصمة الفرنسية، ولم يكن في باريس مسجد في ذلك الحين، وقد اتخذوا من الفندق النازلين فيه مسجداً، واتخذوا من سرير الشيخ حمزة فتح الله منبراً(!!) وأحيوا العيد بالتکبير والتهليل.

(٢٤)

ومن الطريف أن زيارة عبد الله فكري جاءت عقب إتمام بناء برج إيفل بفترة قصيرة. وقد كان أعضاء وفد مصر في مؤتمر الاستشراق من أوائل الرجال الذين صعدوا إلى أعلى طبقات برج إيفل.

وقد نقلت عن هذه الرحلة كثيراً من التفصيات في ثلاثة كتب عن باريس : «باريس الرائعة» ، «وباريس الفتنة» ، «وباريس الحيوة» .

(٢٥)

وفي إستكمال قدم عبد الله فكري لمؤتمر المستشرقين بحثين: أولهما في شرح قصيدة

الحسان بن ثابت شاعر الرسالة والرسول، وثانيهما في موضوع التعليم الجاري بمصر في المدارس الأمريكية والمكاتب الأهلية والمدارس الدينية.

ولم يلق عبد الله فكري الرسالتين في مكان واحد، وهو مكان انعقاد المؤتمر بمدينة إستكهولم، بل ألقى أولاهما في ذلك المكان، وألقى الأخرى في مدينة كريستيانا التي كانت عاصمة جنوب النرويج.

أما البحث الأول فقد سأله «عجاللة البيان على ديوان حسان»، وهو محاولة تحقيق ديوان حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وقد نحا فيها منحى علمياً متقدماً حيث جمع كل ما تيسر له من نسخ مخطوطه لهذا الديوان، وقارن بينها، وحقق أصوتها، ثم كتب ترجمة لحياة حسان بن ثابت، وقدم شرعاً لإحدى قصائده، وقد نال هذا البحث الفريد اهتمام المستشرقين، كما نال تقرير الصحافة.

كذلك ألقى عبد الله فكري في المؤتمر قصيدة الرائية الجميلة (وهي غير رائيته في استعطاف الخديو توفيق) وكان مطلعها:

اليوم أسفـر للعلـوم نـهـار
وـبـدـت لـشـمـس سـائـها أـنـوار
وـمـن الـطـرـيف أـنـ الرـائـيـة فـرـضـتـ سـيـطـرـتهاـ عـلـىـ هـذـهـ القـصـيـدةـ الجـمـيلـةـ بـسـبـبـ اـسـمـ الـمـلـكـ
أـوـسـكـارـ الـذـيـ كـرـمـ عـبـدـ اللهـ فـكـريـ .

وقد سار فيها على طريقته وطريقة شعراء عصره في العناية بالزخارف، والمحسنات، وما إلى ذلك مما يصف الشعر بأنه تقليدي في عصر تقليد.

(٢٦)

كان من حظ عبد الله فكري في أثناء حضوره مؤتمر المستشرقين بالسويد أن يلتقي بعدد من المستشرقين كان منهم: يوسف كوتوال (جوتولد)، والمستشرق المجري جولدتساير، والبارون الألماني دي كريمر، الفرنسي شيفر، والمستشرق الهولندي دي جويه، والمستشرق الألماني الأصل ماكس مولر، والمستشرق الألماني أوغست مولر، والمستشرق الألماني بروكش باشا.

وفي نهاية المؤتمر أنعم الملك أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج عليه بنيشان «وازه» من الدرجة الأولى، وكان هذا التقدير من الملك لعالم مصرى من أعظم درجات التشريف

في ذلك العصر.

(٢٧)

وفي السويد كان على عبد الله فكري (باعتباره رئيساً للوفد المصري) أن يقابل رئيس الوزارة السويدية، وكان في الوقت نفسه وزيراً للمخارجية، وكان همزة الوصل بين الرجلين هو الكونت دي لاندبرج قنصل السويد والنرويج في القاهرة، وقد رد رئيس الوزراء لرئيس وفد مصر الزيارة في الفندق الذي كان معداً لضيافته مع بقية أعضاء الوفد.

ويرى الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن عبد الله فكري قابل الملك أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج مرات عدة، أما المقابلة الأولى فكانت غير رسمية، وكانت في القصر الذي أعد لانعقاد المؤتمر، ويبدو أنها كانت بمحض الصدفة فقط.

أما المقابلة الرسمية فكانت في اليوم التالي.. أي في ٣١ من أغسطس سنة ١٨٨٩ م.

وقد كان الكونت دي لاندبرج نفسه من المهتمين بالمشريقيات، وهو في نظر البعض «مستشرق من طراز بديع»، وقد جمع بين وظائف السلك السياسي، والاشغال بالعلوم الشرقية، خاصة اللغة العربية التي كان يجيدها كتابة وحديثاً، وكان له ذوق نادر في جمع النادر من المخطوطات العربية التي كانت متفرقة في أنحاء شتى من العالم، وكان لا يضمن شيء - في سبيل جمعها والحصول عليها - ولو لا نسخته الخطية ما خرجت «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي في طبعتها الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٨٩٠، وكان هذا الرجل الدبلوماسي المثقف صاحب طريقة محيبة في الإقناع والإغراء، وينسب البعض إلى لباقته وكياسته ودبلوماسيته الفضل في إقناع عبد الله فكري بقبول رئاسة وفد مصر في المؤتمر، وعلى الاشتراك فيه وقبول الدعوة إليه، بعد أن كان ممتنعاً ومنصرفاً. ومن الجدير بالذكر أنه هو الذي سعى لدى الملك أوسكار الثاني ملك السويد (١٨٨٩) - أي في عام المؤتمر نفسه - ليهدي إلى العلامة اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي وساماً رفيعاً في العلوم والفنون

تقديرًا لجهوده في خدمة لغة العرب.

(٢٨)

ونأتي إلى بعض ملامح شخصية عبد الله فكري، ونحن نرى في كتابات السابقين وكتاباته ما يدل على أنه امتاز . فوق مكانته الأدبية . بروح متدينة شديدة التدين ، في غير تزمنت ، وبإيمان كبير بالله الذي يده النفع والضر ، والخير والشر ، وبنزعة محبة للخير إلى أقصى حدود الحب ، وبأخلاق رفيعة حيث في أهل عصره ، وأدباء زمانه .

ويشير الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه عنه إلى أنه سلك طريق التصوف على طريق السادة الخلوتية ، وهو يذكر أن عبد الله فكري أخذ الطريقة وتلقى أحزاجها وأورادها وأدابها وأسرارها على شيخ من شيوخها اسمه الشيخ على حكشة ، كان من العارفين بالله الوالصلين ، وله كرامات مشهورة في وقته ، رفعته إلى مقام الأولياء ، وانتهت إليه مشيخة الطريقة .

ويشير علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» إلى أن عبد الله فكري عرف الشيخ على حكشة ، وعاشره وشاهد كثيراً من كراماته .

وقد أشار عبدالله فكري إلى الفطرة الخيرة فيه في قصيدة الرائية بقوله:

أذكري يا مولاي حين تقول لي	ولاني لأرجو أن ستنتفعني الذكري
أراك تروم النفع للناس فطرة	لديك ، ولا تبغي لدى نسمة ضرا؟

(٢٩)

يقال : إن ثروة عبد الله فكري لم تكن شاغلاً له في حياته الأولى التي كان مشغولاً فيها بالوظيفة ، لكنه في آخريات حياته حين خلا من مشاغلها شغل نفسه باقتناء الأرض واستصلاحها وتعميرها ، ويروى محمد عبد الغني حسن أن عبد الله فكري ذهب في طلب الأرض إلى أبعد من الشراء خطوة ، فقد قدم إلى الخديو توفيق «طلباً شعرياً» يلتمس منه فيه أن يمنحه أرضاً زراعية ، حتى لا يظل محروماً من ملك الأرض :

يامن دعائي له ومدحي	نفل ملدى ملدى وفرضى
---------------------	---------------------

أني أبقى في بغي أرض؟
 فامن بشيء على مرضي!
 يسري بطولها وعرض
 لأملاً الأرض من ثناء.
 وقد أجاب الخليفة توفيق طلبه، فأقطعه مائة فدان.

(٣٠)

وقد وصف ابنه أمين فكري باشا فترة مرض والده الأخيرة وصفاً دقيقاً في مقدمة كتابه «إرشاد الألبان إلى حماستن أوروبا» فقال:

«حضر مصر بعد هذه المرة واستشار طبيه فنصحه بعدم إتعاب الفكر، وترك الإثار من المطالعة، فامتثل أمره ووقف سير الاستغلال بالرحلة وبغيرها لهذا السبب».

«وأخذت صحته تتحسن وتتفقى مستمراً في تقليل المطالعة آخذنا في أسباب العود إلى تمام العافية إلى أن طرأ طارئ لبعض أخصائه استوجب زيادة اشتغال فكره، واستلزم شدة تأثيره ، فعاوده المرض بشدة أكثر من الأول، ولكن الله سلم في هذه النوبة أيضاً باستعمال الوسائل المقوية، والاستمرار على العلاجات الالزمة، وكان ذلك في شهر رجب (١٣٠٧ هـ = ١٨٩٠ م)، فبقى مستريخ الجسم من ذلك الشهر إلى أواسط شهر ذي القعدة، وقد أشار عليه الأطباء بتبديل المواء لتم راحته وتكميل صحته، فتوجه إلى تل حويين وأخذ يتسلى فيها بملاحظة أشغالها الزراعية، وكانت توارد مكاتباته إلى كل تلك المدة منبئة عن حسن صحته، مشعرة بمزيد سلامته حتى قرب العيد الكبير ، وأراد الحضور لمصر وكتب لي بذلك طالباً مني أن أنتظره بمحطتها، مؤكداً على بذلك كل التأكيد في آخر مكتبة منه إلى بتاريخ ٣ من ذي الحجة (١٣٠٧ هـ) كان الله أطلعه على أن ذلك ضروري كما ستراه».

«فلياً كان يوم الخميس ٧ من ذي الحجة (١٣٠٧ هـ = ٢٤ من يوليو ١٨٩٠ م) ذهب لانتظره بالمحطة في ميعاد الوابور المعتمد (الساعة ٥ و٢٠ دقيقة بعد الظهر) وإذا به يعرفي، بل كان يسأل عنِّي إلا أنه بعد كثرة الإلحاح عليه في تعريفني نفسي عرفني آخر مرة قال فيها: «الحمد لله الذي جمع شملنا».

«فليا وصلنا البيت أخذنا في المعالجة وفي الوسائل التي بها يكون صرف المرض، واستعملنا كل ما وصلت إليه اليد، واستحضرنا من لزم من الأطباء، إلا أن المرض كان أقوى والأجل كان أدنى فاحتضر وناداه مولاه فلباه وفارق دنياه بعد ساعة عربية ونصف من يوم الأحد (يوم الأضحية) من ١٠ ذي الحجة (١٣٠٧ هـ = ٢٧ من يوليو ١٨٩٠)».

(٣١)

يمكن القول بأن عبد الله فكري كان محظوظاً في تخليد إنتاجه، حيث جمع كثير من إنتاجه الشعري والنشرى في مجلد واحد أشرف عليه ولده أمين باشا فكري، لكن الدراسة المتأنية لتاريخه وإنتاجه تدلنا على أن كثيراً من هذا الإنتاج لا يزال مفقوداً، وستناقش المؤلفات المنسوبة إليه بالتفصيل في فقرة تالية.

لكتنا نستطيع أن نبدأ بأن نكرر ما قرره مؤرخو الأدب العربي من أن عبد الله فكري كان رائد تجديد النثر العربي، على نحو ما كان محمود سامي البارودي رائد تجديد الشعر، ومن الطريف أن الأول كان وزير المعارف في وزارة الثاني، وهي وزارة الثورة العربية، وهكذا كان الرجال متعاصرين في الثورة وفي التجديد.

والواقع أن إنجاز عبد الله فكري يكمن في أن مواهبه مكتبة لون جديد من النثر لا تقله المحسنات البدعية والسجع الذي كان سائداً على أقلام كتاب عصره، وذلك على الرغم من تفوقه في كتابة هذا الأدب التقليدي، ولم يقف عند تطويره للكتابة الشيرية في الفصحى، بل إنه كتب رسائل بارعة باللهجة العامية المصرية تعتبر في قمة الفن الشري، وقد مكتبه سعة الأفق والعلم بالمجتمع والتاريخ من أن يتولى تنقیح القوانين واللوائح الحكومية وتعديلها، ويمكن القول أن إنجازه في هذا الصدد كان نموذجاً للنجاح في صياغة التشريعات، وهو نجاح مهم من حيث القدرة البينية، وإن لم يلق بعد ما يستحقه من تقدير الأدب والنقد.

(٣٢)

والواقع أن فضل عبد الله فكري على الكتابة الديوانية لا يقل عن فضله على الكتابة الإخوانية، وقد أجمع معاصروه ولاحقوه على إثبات فضله في تجديد الرسائل الديوانية

ولغة الدواوين، وهو تجديد كان ملائماً لظروف ذلك العصر، ويمكن وصفه بأنه كان أقرب ما يكون إلى طريقة إعادة الرواء للكتابة على مذاهب بديع الزمان الهمذاني وأصحاب المحسنات اللفظية، ولاشك أنه في هذه الخطوة كان ممهداً لحركة التجديد التي سار فيها الشيخ محمد عبده، وتخلص فيها من السجع ، حتى انتهت إلى الأخذ بما يسميه البلاغيون «أسلوب الترسل».

ونحن نرى الشيخ حسين المرصفي في الجزء الثاني من كتابه «الوسيلة الأدبية» (١٨٧٢) حريصاً على أن يذكر فضل عبد الله فكري في هذه الناحية، منبهاً إلى مذهبه في الإنشاء، مشيراً إلى «أنه المذهب الذي يتحذّه كل من يريد النجاح في الكتابة الإنسانية الملائمة لروح العصر»، ومع اعتراف الشيخ حسين المرصفي بغلبة الصنعة على طريقة عبد الله فكري في الإنشاء ؛ فإنه يقرن هذا بالقول بأنها «الطريقة المناسبة لأحوالبني وقته، الموافقة لأفهامهم».

(٣٣)

أما في كتابة الرسائل الإخوانية فقد تألق عبد الله فكري، وحاول أن يعود بها إلى عهد بديع الزمان بما فيه من سهولة العبارة، والبعد عن التعمّل والتصنّع، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين الأمثلالسائرة، والإشارة إلى الحوادث المشهورة، وإيثار بعض الخلل اللفظية، كالجناس والمطابقة ، بعيداً عن التزيّد منها والاتكاء عليها على نحو ما كان في العصر الأيوبي وعصر المماليك .

وقد كانت طبيعة الأمور تقتضي أن يعود عبد الله فكري بالرسائل الخاصة الإخوانية إلى عهد بديع الزمان الهمذاني وابن العميد، بدلاً من العودة بها إلى عهد الكتاب المترسلين من أمثال ابن المفعع، وعبد الحميد الكاتب وأضرابهما من كتاب الرسائل في صدر الإسلام.

وما يلفت النظر في رسائل عبد الله فكري الإخوانية أن أكثرها كان يكتبه على لسانه هو، لأنها من وحي علاقاته الخاصة مع رجال عصره، وهذا كانت هذه الرسائل تعبر أصدق التعبير عن مشاعره وإحساسه، ومع هذا فقد حفظ لنا تاريخ الأدب «حفنة من الرسائل الخاصة كان يكتتبها على لسان غيره من أصحابه»، وقد كان يتأنق في هذه الرسائل

تألقه في رسائله هو، ويوسيبها بالبديع السائد منذ العهد الأيوبي وما قبله.
(٣٤)

يرى الأستاذ العقاد أن قصائد عبد الله فكري في شعر الحكم كانت «الصدق بوصايا المتأخرین ونصائحهم منها بالحكم المطبوعة التي كانت تتخلل قصائد الشعرا عفوا في أدب الجاهلية والخضرة وفحول القرن الثالث والقرن الرابع».

ويمضي الأستاذ العقاد في توكيد هذا المعنى فيقول : «إنها كانت أشبه بكلام المعلمين منها بكلام الشعراء، وكانت بوصايا الآباء المحنكين أشبه منها بالخبرة المطبوعة التي تعبّر عنها قرائح أهل الفنون».

وهو يرى أن قصيده التي ضمنها النصح لابنه وأشياها نصائح معلم ، وليس
وحـيـ شـاعـرـ.

ويرجح الأستاذ العقاد أن تكون قصيدة الاعتذار إلى الخديو توفيق خير ما نظمه عبد الله فكري في اللفظ والمعنى ، لكنه سرعان ما يستدرك فيقول: «لكنها على ذلك من الأغراض التي تخطر لكل معتذر ينظم، «فلم يزد عليها من وحي الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته في التعبير».

(٣٥)

وفي مقابل تحامل الأستاذ العقاد على معظم الآثار الشعرية لعبد الله فكري فإنه يرى أن له أبياتاً في المجنون تنبئ عن نفحة الشاعرية، وهي الأبيات التي قالها في إحدى بنات الهوى في باريس:

على طالب معروفها في الهوى سهل
بخاف ولا فيها على عاشق بخل
من الأصفر الإبريز زلت بها النعل
لوصل، ومن أمثالها يطلب الوصل
ترانا ولا بعل هناك ولا أصل

وهيفاء من آل الفرنج حجابها
تعلقتها لا في هواها مراقب
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة
فلما تعارضنا الحديث تعرضت
فرحت بها في حيث لا عين عائنة

وبيت ولی سکران من خمر لحظها
وراح ثناياها ومن خدھا نقل
وقدمت ولم أعلم بما تحت ذيلها
وإن كان شیطاني له بيتا دخل
ويرى الأستاذ العقاد أن «هذه القطعة دلالة نفسية، وعليها صبغة التعبير عن حالة
المصرى المسلم الذى أرسل سجنته بلا حماکمة ولا تكلف حتى نطق مزاجه ، ونقطت
عاداته بما ينم على ضميره وخلجات إحساسه في أمثال هذه المواقف، ومن هنا نسمى
عليها نفحـة الشاعرية، ووضحت عليها الملـامح النفسـية».

لـكـن الأـسـتـاذ العـقـاد سـر عـان ما يـسـطـرـد فيـقـول:

«لأنها لم تخرج عن أغراض «الشقة المشتركة» بين طبائع الشعراء وغير الشعراء».

(۲)

ويلفت الأستاذ عباس العقاد نظرنا إلى بعض الموضوعات التي استغرقت موهبة عبد الله فكري الشعرية (إن صح تعبيرنا هذا.. وما أرى تعبيري إلا صدى لرأي العقاد)، ومن هذه الموضوعات أن عبد الله فكري كان يضع التواريخ بحروف الجمل في مطالع القصائد وخواتيمها فقال في فتح «سباستبول» وكل مصرع من مطلع القصيدة تاريخ للسنة: **لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم هان لنا الصعب** وقال مؤرخا زواج الأمير (السلطان فييا بعد) حسين كامل:

أرخ لنحو وحـسين تـزف عـين الـحياة
وكان يـكثـر مـن الـجـناس وـمن ذـلـك قـولـه في قـصـيدـته الرـائـية في مدـح «إـسـكاـر» مـلك السـويد:

وتلا به إسکار رب سریره قولا به لذوی النھی ایسکار

(۷۴)

وعلى نهج ما قال الأستاذ العقاد صاحب القدرة النافذة في الحكم على الأدب وتاريخه فإن بعض النقاد يذهبون في تاريخهم للأدب إلى أن عبد الله فكري لم يستطع القيام بتجديده ذي قيمة في الشعر مع أنه نظم ديواناً كاملاً من الشعر، ونحن نلاحظ من كتابات النقاد

ومؤرخي الأدب أن شعر عبد الله فكري لم ينل ما ناله نثره من التقدير، لكنه مع ذلك لم يعدم هذا التقدير، ونحن نجد الشيخ أحمد الإسكندراني يقول عن شعر عبد الله فكري: «وله شعر وسط في الجودة»، وكذلك نجد الأستاذ عمر الدسوقي يقول عنه: «كان يمثل في شعره مدرسة الصنعة، لا مدرسة الطبيعة، يؤرخ بكل مناسبة، ويسيطر، ويقول الألغاز والأحاجي، ويقول - كما يقول الندماء - في وصف الآنية ومجالس الأنس والأزهار، وغير ذلك، ويكثر من المحسنات يتزعها انتزاعاً، ويخسرها حشراً، شأن هذه المدارس التقليدية، وقلما انطلق على سجيته، وترك نفسه لطبيعتها».

ويبدو لي أن الصيغة الغالبة على الكتابات النقدية التي تناولت قيمة شعر عبد الله فكري قد تأثرت إلى أبعد حد بما لخص الأستاذ العقاد به نظرته إلى شعر هذا الرجل في فصل عتاز من كتابه «شعراء مصر وبياتهم».

(٣٨)

ونحن نرى الأستاذ العقاد يضع شعر عبد الله فكري في إطار تيار عصره، بل يضع عبد الله فكري نفسه في هذا التيار على نحو ما توحّي به الفقرات التي نقلناها عنه من قبل. كان عبد الله فكري يصف الآنية والأزهار ويشبّه بالتفانين على طريقة الظرفاء المقتدي بهم في عصر الأيوبيين وما بعده خلال المنادمات والمطارحات كما قال «في نار موقدة في فحم حوله رماد»:

أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب	كأنها الفحم ما بين الرماد وقد
يموج من فوقها بحر من الذهب	أرض من المسك كأنور جوانبها

وقال في الورد:

يزهو بشوبي خضرة واحمرارا	كأن وردالاح في كمه
أو وجنة خط عليه اعذار	ياقوتة في سندس أخضر

(٣٩)

ويشير الأستاذ العقاد أيضًا إلى ما آثر عنه من أبيات متفرقة في أغراض التورية والاستخدام مما يذكر بأغراض النظم التي كان الأدباء الديوانيون يطرونه، ثم تبادى فيها من جاء بعدهم من المقتدين والقلديين، ويضرب العقاد على هذا مثلاً بقصيدة التي عارض بها لامية ابن مطروح ويقول في مطلعها:

غزال حلال فيه الغزل
فحرم قري وفى القلب حل!

وقد امتد أثر الصنعة فشمل كل شعر عبد الله فكري حتى إن أبياته في الغزل لا تخلو من أثر الصنعة والتتكلف والبعد عن كل عاطفة، «كما يبدو عليها البرود، لأنها ليست نتيجة تجربة صادقة»، ومن غزلياته قوله:

وعارف بفنون الطب تجربة	وخبرة ليس يخفي عنه ما التبسا
واف ليلى ما أشكو فجس يدي	حينما وأرسلها حينما وقد عبسا
وقال: داء هوى أعبا الأساة فإن	أهملته زاد، أو داويته انكسا!

إذا كان هذا (العارف بفنون الطب) يقول هذا الذي يقوله عن تجربة وخبرة. كما يقول الشاعر - فإنه هو نفسه لم يكن عارفا بالحب، أو قائلًا فيه عن تجربة وخبرة!

(٤٠)

أما افتتاح القصيدة الاستعطافية الثانية، أي القصيدة الميمية التي نظمها عبد الله فكري باشا للخديو توفيق فقد كان حافلاً بأبيات الغزل والصباة والدلالة، على طريقة المحاكمة والتقليد للأقدمين، ليخلص - كما كانوا يقولون - من هذا الغزل المجلوب المصطنع إلى المدف الذي يريد، وليدخل منه المدخل الذي قصد إليه، فهو يقول:

لي الله من عانى الفؤاد متيم	ولوع بمغربي بالدلال منعم!
وفي كما شاء الغرام ولو رمى	في البين غدرا بين أناب ضيغم
صبور على جور الغرام وعدله	شكور على زور الخيال المسلم
وقد عشت عمري أنقى عادي الهوى	واسحب أذیال الخالي المسلم

أَلْوَمْ عَلَى دِينِ الصَّبَابَةِ أَهْلَهُ
وَأَسْخَرْ مِنْ حَالِ الْعَمِيدِ الْمُتَمِّمِ
إِلَى أَنْ رَمَى قَلْبَكَ هَوَاكَ بِأَسْهَمِ
تَلْتَهَا يَدِ الْبَنِيِّ الْمُشْتَتِ بِأَسْهَمِ
هَكَذَا نَظَمَ عَبْدُ اللَّهِ فَكْرِي أَبْيَاتًا كَثِيرَةً مِنْ هَذَا الغَزْلِ الْمُفْتَعِلِ (حَسْبُ وَصْفِ الْعَقَادِ)
الَّذِي لَا يَعْبُرُ عَنْ صَدْقِ الْتَّجْرِيَةِ، وَلَا فِي الشَّعْرِ، قَبْلَ أَنْ يَدْأُ فِي مَدْحِ الْخَدِيْوِ.
(٤١)

وبالإضافة إلى جهد عبد الله فكري في إحيائه للكتابة العربية وتجديده لغة الدواوين فإن له فضلًا آخر لا يقل أهمية تمثل في دعوته إلى الأخذ بالعلوم الطبيعية الحديثة في صياغة ثقافتنا العربية وبراجمنا التعليمية [إذا كان الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير مجلة «المقططف» أقدم رواد الثقافة العلمية والمدافعين عنها، والمؤيدون لها عملاً وإنتاجاً، لا كلاماً فإن عبد الله فكري هو أبرز من رعا هذه الفكرة وتبني تفاصيلها ، ويكتفي في هذا الصدد أن أشير إلى الإشادة المفرطة للدكتور حسين فوزي بكتاب «الفوائد لفكرية» وما احتواه من معلومات علمية وموسوعية ، وهي الإشارة التي ضمنها الدكتور حسين فوزي سيرة حياته : «ستدباد في رحلة الحياة» .

ويتصل بهذا الإنجاز ما كان لقدرة عبد الله فكري على التوفيق بين الدين والعلم من أثر كبير فيما أخذ به الأزهر نفسه من حركات لإصلاح مناهجه العتيقة، وكتبه القديمة، وهو الجهد الذي كان للشيخ محمد عبد الله البد طولى فيه.

.....

لكل هذه الإسهامات المتعددة الوئيدة كان حرسي الشديد على أن أتحدث عن عبد الله فكري بالذات حديثاً مطولاً في هذه الدراسة التي تختص برؤاد الثقافة (أو النهضة) الموسوعية العربية .

(٤٢)

مؤلفاته:

نعتمد في سرد مؤلفات عبد الله فكري على الجهد الذي قام به الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه عنه، مع الإشارة إلى ما لم يشر إليه ، وأشارت إليه مصادر أخرى ، وهو يشير إلى أن عبد الله فكري ترك مجموعة من المؤلفات والمصنفات تبلغ بضعة عشر كتاباً،

طبع بعضها في كتب مستقلة قائمة بذاتها، بعد أن نشر مفرقاً في بعض مجالات ذلك العهد المقتطف، وروضة المدارس، وصحيفة وادي النيل، ولايزال بعضها مخطوطاً (!!)) وإن كان مفقوداً (!!)

وستنقل للقارئ ما أورده الأستاذ محمد عبد الغني حسن مع التصرف والترتيب ، مردفين بإضافاتنا على نصه ، والفضل للأستاذ محمد عبد الغني حسن أولاً وأخيراً .

ونلاحظ أن الأستاذ محمد عبد الغني حسن قد رتب هذه المؤلفات ألفبائيا دون الفصل بين المطبوع والمخطوط ، على نحو ما فعلنا.

- أولاً: المطبوعات:

- «آثار الأفكار ومثير الأزهار» طبع منه تسع ملازم بمجلة روضة المدارس، بعد أن نشر على حلقات متواالية .
- «الرحلة البعلبكية»: رسالة صغيرة الحجم، تمثل أدب الرسائل الخاصة، وقد كتبها عبد الله فكري وبعث بها من بعلبك إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخاني، الذي كان من كبار ظرفاء الشام في وقته. (طبعت في كتيب ١٨٨٥).
- «الرحلة الملكية» وهي رسالة إخوانية أخرى بعث بها أيضاً إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخاني، وقد طبعت مستقلة في كتيب (١٨٨٥) أي في نفس السنة التي طبعت فيها «الرحلة البعلبكية»، كما نشرت في كتاب «الآثار الفكرية» الذي جمعه ابنه أمين فكري باشا وجمع فيه شعر والده ورسائله ومقاماته وخطبه، وطبع في المطبعة الأميرية بيولاق (١٨٩٧)، وهذه الرحلة أكثر إيجازاً من الرحلة السابقة، وتصف لنا قيام عبد الله فكري بزيارة الحج والزيارة.
- «رسالة في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والمقرر في علم الهيئة» وهي الرسالة التي كتبها (١٨٧٦)، ونشرت في السنة الأولى لإصدار مجلة المقتطف بمناسبة الضجة التي أثيرت حول ما كتبه الدكتور يعقوب صروف عن إثبات دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وقد كان هذا المقال - أو الرسالة - للتوفيق بين العلم والدين، كما كان من الدوافع الأولى ، في رأيي وتقديرني ، للأخذ بفكرة الإفادة من الطرق الموسوعية والعقلية

الموسوعية والاتجاه نحو استيعاب وتضمين العلوم الحديثة والطبيعية في الفكر العربي، وببحث مدى توافقها مع ما قالت به علوم الشريعة.

وقد نشرت هذه الرسالة النفيضة موجزة في المقتطف بعنوان «العلوم الطبيعية والنصوص الشرعية»، ونشرت كاملة في مجلة روضة المدارس، وصحيفة وادي النيل بالعنوان الطويل الذي ذكرناه هنا.

وقد كتبت هذه الرسالة على هيئة حماورة بين فقيه وعالم من علماء الهيئة، ولقيت استحساناً كبيراً من العلماء المجددين. كما لقيت معارضة من آخرين : ففي الخزانة التيمورية رسالة مخطوطة بقلم محمد أفندي عنوانها: «سبائك الذهب التبرى فى إلغاء كلام عبد الله فكري»، ردًا على هذه الرسالة.

- «شرح بديعية الشاعر محمود صفوتو الساعي» وهو على حد وصف الأستاذ محمد عبد الغني حسن الشاعر المصري الرقيق الحلو الفكاهة، والحاضر البديهة، المتوفى سنة ١٨٨١، وهو من أعلام الشعر في القرن التاسع عشر.

ويشير الزركلي إلى أنه مطبوع لكن الأستاذ محمد عبد الغني حسن يذكر أنه لم يعثر على هذا الشرح مطبوعاً، كما يذكر محقق «حلية البشر» ولم يقف على نسخته الخطية.

- «شرح ديوان ابن النبي» وهو شاعر من شعراء القرنين السادس والسابع الهجرين، كانت له صلة وثيقة بالأيوبيين ومداياهم كثيرة فيهم، وقد جرى عبد الله فكري في الشرح على طريقة القدماء من الاهتمام بالشرح اللغوي، والإعراب، والاستطرادات الأدبية والتاريخية، وقد طبع هذا الكتاب بالمطبعة العلمية (١٨٩٥).

- «عجاله البيان على ديوان حسان» وهو شرح لـ ديوان حسان بن ثابت شاعر الرسول والدعوة الإسلامية، ولم يمض فيه عبد الله فكري إلى النهاية، بل أنجز شرح القصيدة الممزية. وقد قدم عبد الله فكري هذا الشرح إلى مؤتمر المستشرقين (الثامن الذي انعقد في إستكهولم، وكان هو رئيساً لوفد مصر فيه، ولم تساعديه الأيام على إتمام شرحه، فقد توفي بعد عودته من المؤتمر بقليل، وقد نشر هذا الشرح في مجموعة «الأثار الفكرية»، كما نشرت مقدمة الشرح في كتاب «إرشاد الألباء إلى محسن أوروبا».

• «الفصول الفكرية للمكاتب المصرية» وهي رسالة في نحو اللغة العربية، قصد بها المؤلف أن تكون كتاباً مدرسيّاً بأيدي التلاميذ، لتسهيل دراسة النحو عليهم وتسيره، خصوصاً بعد حملة الشيخ محمد عبد (١٨٨٠) على الكتب المدرسية وتأليفها في جريدة الواقع، ولعل هذا الكتاب هو أول محاولة معاصرة لتسهيل النحو العربي قبل أن يقوم الأستاذ حفيظ ناصف وزملاؤه بمحاولتهم الموفقة في كتابهم المشهور «الدروس النحوية»، وقد طبع هذا الكتاب بمصر (١٨٨٣ و١٨٨٦ و١٨٨٩) على التوالي.

• «الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية» وهو يحتوي على فصول للمطالعة بالمدارس والمكاتب، وبعض الفصول بقلم المؤلف، وبعضها بقلم غيره، ولكن تصرف فيها بما يناسب حالة التلاميذ، وبلائم مستوياتهم العقلية، وقد ظل هذا الكتاب مقرراً ومقرولاً في جميع مدارس مصر إلى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)، إلى أن حل محله كتاب «القراءة الرشيدة» لعبد الفتاح صبري وعلى عمر.

وقد طبع الكتاب على الحجر أول مرة (١٨٨٢) كما طبع (١٩٠٢)، وطبع في المطبعة البيمنية (١٩١٥) على هامشه حاشية الشيخ عبد الله العشاوي على كتاب الآجرمية في علم النحو.

وأفضل طبعات الكتاب وأصححها ضبطاً للآيات والأحاديث النبوية تلك الطبعة التي قامت بها مطبعة المعارف بالفجالة (١٩٠٢).

• «المقامة الفكرية في المملكة الباطنية» وهي رسالة جليلة مترجمة عن اللغة التركية بعد ترجمتها من بعض اللغات الأجنبية، فهي ترجمة عن ترجمة، لكن عبد الله فكري تصرف فيها بما يلائم المقام، وصاغها بأسلوب المقامات، وأضاف إليها زيادات، وأنشأها على طريقة السجع لا على الأسلوب المرسل، وملأها بنوادر الحكم والأمثال وأبيات الاستشهاد في الشعر العربي، وهو يقصد بتغيير «المملكة الباطنية»: «ملكة النفس الإنسانية» بما فيها من قوى الخير والشر، ونوازع الصلاح والفساد. وقد طبعت هذه الرسالة طبعة مستقلة في مطبعة وادي النيل (١٣٨٩هـ)، كما طبعت في مجلة روضة المدارس (١٣٩٠هـ). (ولعل هذا الكتاب هو ما يشير إليه

الزركي باسم «المملكة ال巴طنية»).

- «موارد القرآن» وهي رسالة لم تتم، في بعض ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الحكم والأمثال ومواضع الاستشهاد، في حل إشكال أو إجابة سؤال. وقد نشر منها قطعة في مجلة روضة المدارس مفرقة على ثلاثة أعداد، تبدأ من العدد الثاني من السنة الثانية (١٣٨٨ هـ = ١٨٧١ م).

- «نظم اللآل في الحكم والأمثال» وهو رسالة جامعة لطائفه كبيرة جداً من الحكم والأمثال العربية الشعرية، رتبها عبد الله فكري على حروف الهجاء.

كانت هذه الرسالة ضرورية في وقتها للمساعدة على عمل المطارحات الشعرية التي كانت تدور في مجالس ذلك العهد، حيث يبدأ أحد شهود الندوة بيت من الشعر أوله عمايل للحرف الأخير من آخر بيت قيل، فهي مادة غزيرة مساعدة للمطارحات، وهذا فوق قيمتها الأدبية الأخرى بكونها ذخيرة عظيمة للاستشهاد بالشعر في المناسبات الملائمة، ولكن يؤخذ عليها في رأي الأستاذ محمد عبد الغني حسن أنها رتبت على حروف الهجاء في أوائلها ، ولو أنها رتبت على وفق الموضوعات والمعاني المشابهة لكان أكثر قيمة.

- وقد طبعت هذه الرسالة في المطبعة اليمنية في ست وخمسين صفحة.

(٤٣)

- ثانياً: المخطوطات:

- «إنفاف المشتاق بأخبار العشاق» وهو كما يدل عليه عنوانه يتضمن موضوعات تتصل بعشاق العرب وأخبارهم، وما روى من آثارهم، ولم يتم عبد الله فكري تأليفه، ولم يقدر له أن يطبع.
- «تعليقات على منظومة أحمد خيري باشا في الموعظ والحكم» وهو لم يطبع.
- «رسالة في الدينار» لم تطبع، ولم يهتد مؤرخونا إلى أصلها المخطوط.
- «رسالة فيها اتفق لفظه، واختلف معناه من بلاد مصر»، لم تطبع ولم يهتد مؤرخونا إلى أصلها المخطوط.

(٤٤)

وأخيراً فإننا ننقل عن الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ما أشار إليه من أنه اقتني إضبارة من أوراق عبد الله فكري الخاصة، تشمل على مسودة «رحلته» إلى إستكهولم، بخطه، غير تامة، و«ديوان شعره» بخطه أيضاً، صغير، كتب عليه: «من نظم الفقير عبد الله فكري بن محمد بلية بن عبد الله بن محمد بن عبد الله» وفيه مساجلات شعرية كانت بينه وبين بعض معاصريه كال الأمير شكيب أرسلان، والشيخ الليثي، وأحمد فارس (الشدياق) صاحب الجواب، ومسودة «أنموذج كتاب لتعليم صغار الأطفال» من تأليفه، وجزأين من «دفاتره» بخطه، كتب على أحدهما: «الجزء الثالث من الدفتر، لجامعة عبد الله فكري»، وفيهما فوائد في الأدب والاجتماع والجغرافية وغيرها.

(٤٥)

توفي عبد الله فكري في الساعة الثانية من صباح يوم عيد الأضحى (في أغسطس ١٨٩٠ م)، وقد صحح الأستاذ محمد عبد الغني حسن ما وقع فيه كثيرون - ومنهم الأستاذ العقاد والزركلي - فذكر أنه توفي في أغسطس سنة ١٨٩٠ م. لا كما جاء عند بعض المؤرخين المعاصرين من أنه سنة ١٨٨٩ م - عن ستة وخمسين عاماً، واشترك في رثائه وتأييشه أكبر شعراء ذلك الوقت وأدبائه، وعلى رأسهم إسماعيل صبري، وحفني ناصف، ومحمد عثمان جلال، والشيخ على الليثي، والأمير شكيب أرسلان، والعلامة اللغوي الشيخ الشنقيطي المعروف بابن التلاميذ.

وقد اشتهرت مرثية حفني ناصف لعبد الله فكري شهرة عظيمة، وكان مطلعها من الأبيات السائرة التي يتناقلها الرواة، كما كانت تختار في النصوص المختارة لمخطوطات المدارس حتى العقد الثاني من القرن العشرين، ومطلعها:

ليدع المدعون العلم والأدبا فقد تغيب عبد الله واحتتجا!

وقد طالت أبيات القصيدة حتى بلغت ستة وخمسين بيتاً، افتتن فيها الشاعر حفني ناصف في فنون القول، فأمر أدعياه البيان أن يظهروا في غير حرج ولا خوف، فقد مات الذي كانوا يرهبونه، وكانوا يخشون الظهور أمامه!

وخلاله القول إن النقاد ومؤرخي الأدب أجمعوا على تقدير مكانته الأدبية، وصفاته الخلقية، حتى لم تكن تخلو قصيدة واحدة في رثائه من الإشارة إلى إيجاز أو إطناب إلى هاتين المزتين.

الباب الثالث

نموذجان للموسوعيين

الفصل الخامس
أحمد زكي باشا
شيخعروبة
١٩٣٤ - ١٨٦٧

(١)

هو أحمد زكي بن إبراهيم بن عبد الله الملقب بشيخ العروبة. ذكر الزركلي أن أباه كان ينتمي إلى آل النجار في عكا في فلسطين، وذكر آخرون أن أباه من أهل المغرب، دفعته التجارة إلى أن يستقر في يافا أولاً، ثم في رشيد، حيث تزوج فتاة من آل سويدان في ضواحيها، ثم استقر به الطواف في الإسكندرية. ولد أحمد زكي باشا بالإسكندرية، وقد تولى تربيته أخيه الأكبر القاضي محمود رشاد، وكان ذا إمام بقضايا الفكر.

وتلقى تعليماً مدنياً حتى تخرج في مدرسة الإدارة والحقوق .
وأتقن الفرنسية وكان ملماً أيضاً بالإنجليزية والإيطالية .

بعد تخرجه في مدرسة الإدارة والحقوق عين مترجماً في مجلس النظرار في ١٨٩٢ ، وترقى في المناصب سكرتيراً ثانياً وسكرتيراً أول حتى وصل إلى سكرتارية مجلس النظرار، وهو المنصب الذي يعرف الآن بأمين عام مجلس الوزراء، ونال البашوية في أثناء ذلك، وأحيل إلى المعاش ١٩٢٢ أي قبل أن يصل السينين .

(٢)

كان أحمد زكي منتفقاً مؤسساً ومتذمراً بموسوعيته ، وكان حفياً بإنشاء المؤسسات العلمية الوطنية على النمط الأوروبي الحديث ، ويذكر له أنه اشتراك في إنشاء الجامعة المصرية، وكان من أعضاء مجلس إدارتها، وأميناً لها، كما كان عضواً في الجمعية الجغرافية الخديوية (السلطانية) وسكرتيراً لها، وكان أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد ساعد اللجنة التي قامت بترجمة دائرة المعارف الإسلامية، فأتاح لها الإفادة مما كان يملكه من الكتب المخطوطة والمطبوعة ، وأرشدها إلى ما تستعين به في مكتبته : «الخزانة

الذكية»، وقد أفاد محررو هذه الدائرة من علمه ، وضيّعوا بفضله معرفتهم بالمصطلحات وبالنحو .

قال الأمير شبيب أرسلان في وصفه: «كان يقطن في إغفاء الشرق، وهبة في غفلة العالم الإسلامي، وحياة في وسط ذلك المحيط الهاامد» وفي هذا القول تلخيص أمين لإنجازه الفكري والثقافي فقد امتدت إسهامات أحمد زكي باشا إلى شؤون اللغة العربية واللغات الأخرى والمصطلحات ، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، والقانون، والاقتصاد السياسي .

(٣)

على مدى ثلاثين عاما (١٨٩٢ - ١٩٢٢) كان له الفضل الأكبر في الارتقاء بلغة دواوين الحكومة المصرية الحديثة إلى لغة فصحى مفهومة غير مبتدلة ولا متقدمة، فقد تولى بريادة فائقة الارتقاء بلغة الدواوين الحكومية من خلال الأوامر والتوجيهات، ويوسع المطلع على وثائق التاريخ أن يدرك مدى ما كانت تحفل به المكاتبات الحكومية وأوامر مجلس النظار (فيما قبل عهده هو) من ألفاظ عامة وتركية أو كليشيهات .

ويتصل بدور أحمد زكي في ترقية أسلوب الكتابة العربية الحكومية أو الوظيفية نجاحه الفذ والمبكر فيها استشعره من أن من الواجب عليه أن يجد ألفاظاً عربية دقيقة للمعاني وللمبتكرات الجديدة، أي أن يضع مصطلحات الحضارة كما نسميتها الآن ، وكأنه كان عليه أن يقوم وحده ، ومبكراً بدور مهم من أدوار المجامع اللغوية .

ومن الألفاظ التي ابتدعها أحمد زكي ولا تزال تستعمل: «السيارة» بدليلاً عن الأوتومبيل ، و«الدراجة» للعجلة ، و«صحافي» بدليلاً عن جورنالجي . وهو الذي سمي الأندرس بـ«الفردوس المفقود» حين كتب عن رحلته إليها .

وبعد فترة من تفوّقه في وضع المصطلحات وجد أحمد زكي نفسه مطالباً بأن يبيّن عن منهجه في اختيار الألفاظ والمقابلات العربية، وهكذا دخل إلى مرحلة التنظير والتأصيل التي أثبتت تفوّقه فيها، كما أثبته في مرحلة الريادة ، ومع سمو منهجه في التعرّيب فإنه لم يكن ليلقى قبول بعض الأساتذة القدامى .

(٤)

أما الترجمة فقد كانت الميدان الثاني من الميادين التي بزغ فيها ، ونال الشهرة والتقدير، وبخاصة أنه كان سريع الترجمة دققها، كما كان حريصاً على شرح أسباب تفضيله لترجمة ما على ترجمة أخرى .

وعلى صعيد متصل قدم أحمد زكي باشا خبرته المهنية في الترجمة في كتابه «أسرار الترجمة».

ويفضل خبراته في ترقية الكتابة ووضع المصطلحات وفي الترجمة (أي في الميادين اللذين تحدثنا عن نبوغه فيها) أعد أحمد زكي لإصدار قاموس عربي ضخم ، لكنه فيما يبدو لم يوفق إلى الانتهاء منه وإنما فقد كان حرباً بمورخيه أن يشيروا إلى مخطوط له .

(٥)

على صعيد ثالث يذكر لأحمد زكي باشا أنه هو الذي أدخل حروف (أو علامات) الترقيم إلى الكتابة العربية معتمداً على ما تواضع عليه الأوروبيون في أمرها، وقد أقنع قراءه ومعاصريه أن هذه العلامات تعوض وظيفة النبر الصوتي التي يقوم بها المتحدث أو الخطيب أو المحاضر، وقد سمى الفاصلة التي نعرفها الآن بهذا اللفظ باسم بدائي هو الشولة، كما استخدم ألفاظ التقويس والتضييب للدلالة على وضع الأقواس وعلامات التنصيص ، ومن الطريف أنه كان يسمى ما نعرفه الآن بعلامة التعجب علامة الانفعال.

ويتصل بهذا الإنجاز أنه هو الذي تولى اختصار حروف الطباعة، وكان صندوق الطباعة يتضمن أكثر من تسعين شكل من أشكال الحروف، فاختصره إلى ١٣٢ حرفاً فقط، وقد كان هذا إنجازاً قبل أن تدخل الحواسيب في تطبيقات طباعة الحروف .

وقام برحلة إلى أوروبا مع مدير المطبعة الأميرية ، فزار النمسا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وتركيا للنظر في الخطوطات العملية لاختصار صناديق الطباعة ، وتسهيل طريقة الجمع المطبعي ، وعاد بعد أن توصل إلى اقتراحات عملية.

(٦)

على صعيد رابع عرف أحمد زكي باشا كواحد من أبرز المثقفين الوطنيين ذوي الصلات الدولية في ميادين الفكر والعلم ، وقد انتدب لحضور مؤتمر المستشرقين الدولي بفيينا في ١٨٩٢ واستغرقت رحلته إلى هذا المؤتمر وعودته ستة أشهر (١٤ أغسطس ١٨٩٢ - ١٤

فبراير ١٨٩٣) وقد صحبه في هذه الرحلة الشيخ محمد راشد كما حضر المؤتمر معه من مصر العالم الألماني كارل فولرس الذي كان مدير الدار الكتب وتولت شركة توماس كوك تنظيم رحلته على نحو استحق معه إشادته بها.

و هكذا اتصل بشخصه وسفره وبحكم مناصبه بمؤتمرات المستشرقين . ومثل مصر في المؤتمر التاسع الذي عقد في لندن ، والمؤتمر الذي عقد في أثينا (١٩١٠م) .

وعلى المستوى العربي فقد كان على علاقة بأنداده في البلاد العربية الأخرى : محمد كرد علي في دمشق ، وأنستاس الكرمي في العراق ، وطاهر الجزائرى وكانت له معهم مراسلاته ومناقشاته .

(٧)

على صعيد خامس عرف أحمد زكي باشا كواحد من أوائل الأساتذة المحاضرين في الجامعة المصرية القديمة ، وكان أستاذا جامعيا نموذجيا على نحو ما تشهد بذلك انطباعات من تلمندوه عليه ، وفي مقدمتهم طه حسين ، وكان في محاضراته كما كان في إسهاماته العلمية ومشاركاته المجتمعية شعلة نشاط ، دائم الحركة ، مجيدا في المحاضرة والخطابة .

وقد خاض معارك فكرية وأدبية كثيرة كان له فيها السبق المجل ، ومنها معاركه مع محمد مسعود وزكي مبارك .

(٨)

على صعيد سادس كان أحمد زكي باشا صاحب مكتبة علمية ذات مواصفات عالمية ، كما كان جاماً محبًا للمخطوطات ، وقد ضمت مكتبته ما يربو على عشرة آلاف كتاب ، وقفها للعلم وهي الآن من المكونات المهمة في مقتنيات دار الكتب المصرية .

وقد وظف رحلاته العلمية في الاتصال بدور الكتب والمكتبات والمجتمعات العلمية والمستشرقين والاطلاع على المخطوطات العربية في العواصم الأوروبية ، وقد أفاد من هذه الرحلات والمؤتمرات معرفة مباشرة ووثيقة بكثير من المستشرقين ، كما أفاد معرفة عميقه بالمخطوطات في المكتبات العالمية ، وقد بذل الجهد في تصوير ما وقعت عليه يده من المخطوطات .

الأزهر ياعثا لشراة النهضة العربية

وفي زيارته لليمن اطلع على كثير من مخطوطاتها، واقتني نسخة مصورة من كتاب «الإكليل» للهمذاني (في تاريخ اليمن القديم) وأودعها دار الكتب المصرية، وإليه يرجع الفضل في شهرة هذا الكتاب.

وسوف تناول جهده في تأسيس وجمع وترتيب مكتبه وقيمة هذه المكتبة ومصيرها بعد أن نفرغ من تعداد ميادين تفوقه ومؤلفاته .

(٩)

في صعيد سابع كان أحمد زكي باشا من رواد تحقيق التراث ، وهو صاحب فكرة إنشاء كيان لإحياء الكتب العربية القديمة، وقد تولى بنفسه تصحيح ومراجعة عدد من الكتب التي طبعتها الحكومة المصرية .

ومن الإنفاق أن نشير إلى أنه استصدر من مجلس الوزراء موافقه على مشروع لإحياء الأدب العربي في ٢٤ أكتوبر ١٩١٠ وقد اعتمد له المجلس (٩٣٩٢) جنيهًا على أن تصدر الكتب المحققة بإشراف دار الكتب المصرية .

ويذكر له أنه حقق لابن المفعع كتابيه الشهيرين : الأدب الصغير والأدب الكبير كما حقق للكلبي كتابيه : الأصنام ، وأنساب الخيل ، وحقق للجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» وحقق لابن مسكونيه : «تجارب الأمم» كما حقق لابن فضل الله العمري : «مسالك الأبصار في مالك الأمصار». وللصفدي نكت الهبان ، وحقق بعض أجزاء «نهاية الأربع» للنويري .

ويتصل بهذا الجانب من إنجازه أنه عُني بكتابه وترجمة بعض الكتب في القضايا الحضارية التي تناولها بقلمه، ومن هذه الكتب: «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام»، كما نشر كتاباً بعنوان «ذيل الأغانى» .

(١٠)

ويأتي إسهامه في أدب الرحلات ليضيف إليه مجده ثامناً فقد كان رحالة كاتباً، وكتب كتاباً من وحي رحلاته العلمية وغير العلمية، منها: «الدنيا في باريس» وقد نقلت عنه بعض النصوص في ثلاثة باريس التي نشرتها عن قريب ، و«السفر إلى المؤتمر» عن رحلته إلى مؤتمر المستشرقين ، وله مخطوط «عجائب الأسفار في أعمال البحار» .

وكان حريصاً على أن يسجل انطباعاته عن المدن التي يزورها ، كما كان ينشر مقالات عن هذه الرحلات في الصحف المصرية .

وعلى سبيل الإجمال فإنه زار بعض العواصم مرتين : روما وباريس ولندن ولشبونة . وكذلك كانت له جولات في بلاد العروبة ، وقد زار بلاد الشام وكتب عنها خواطره في فصول مطولة .

وفي زيارته لإسبانيا التقى بالملكة كريستينا الوصية على العرش ، ونال منها وسام إيزابيلا .

ويتصل بنبوغه في أدب الرحلات ما كان له من اهتمامات جغرافية موسوعية وهو الذي ترجم عن اللغة الفرنسية «مصر والجغرافيا» ، كما ألف «قاموس الجغرافيا القديمة» . وتعددت بحوثه في تصحيح الأعلام الجغرافية والأسماء ونحوها ، وبعض التراجم وأسماء الشوارع ، ولا سيما أعلام الأندلس العربية الأصل المحرفة الآن .

(١١)

ونأتي إلى الميدان التاسع أو الميدان الكبير المتوج الذي أعطاه لقبه المشهور به وهو لقب شيخ العروبة ، وربما يصدق القول بأنه كان الداعية الأول للتمسك بفكرة العروبة ، حتى لو لم تكن دعوة العروبة مرتبطة بفكرة القومية العربية ، وربما كان توجهه العروبي أرقى من توجه أصحاب القومية العربية التالين له .

ولا جدال في أن أحمد زكي كان من الأوائل الذين عبروا صراحة وفعلاً عن تشبعهم بمجد العروبة والإسلام .

وفي الحقيقة فإنه كان سابقاً على عبد الرحمن عزام في الدعوة إلى العروبة ، فقد تولى بنفسه إنشاء «الرابطة الشرقية» بعد تقاعده ، وكان اللفظ في ذلك الوقت مستخدماً للدلالة على الشعوب التي ترتبط بنا بالإسلام أو العروبة أو بهما معاً ، وكان يصرح بوجهة نظره في أهمية الرابطة الشرقية وفكertiaها بأن في توجهه إلى الشرق والعروبة وضعماً لمصر في زعامة الشرق بديلاً عن اللحاق بالغرب في ذيله ، ونظرًا لحماسه الشديد لهذه الفكرة فقد لقب بشيخ العروبة ، وهو اللقب الذي عرف به منذ ذلك الحين وحتى الآن .

وعلى المستوى المعرفي فقد عُني بجمع تاريخ العرب في كتاب «تاريخ المشرق» ، واهتم

بالكتابة عن أبعد العرب في التأليف من خلال كتابه «موسوعات العلوم العربية». وقد آثر بعد أن لقب بشيخ العروبة أن يلبس العقال والعباءة كشيخ العرب، وقد فتح بيته للزائرين في كرم نادر، وأصبح بيته داراً لاستقبال والتقاء الزائرين العرب وأدبائهم، وكان يحتفل بهم احتفالات باذخة، يجمع لها وجوه الحياة السياسية والاجتماعية مما قوى من روابط التعارف ونقل فكرته إلى حيز فعلي، وممكن لها بأفضل الوسائل.



وفي هذا الإطار كان أحمد زكي صاحب تفكير حضاري رائد يؤكد توجهاته بخطوات إنسانية على أرض الواقع على نحو ما خبره من عنابة الأوليين بإثبات انتهاهم والتوكيد عليها.

وفي هذا الصدد فقد دعا إلى ترميم المسجد الأقصى في القدس، وإلى بناء أضرحة لابن خلدون في مصر، وأبي الفداء في حماة، والمعري في المرة.

(١٢)

ومن الإنجازات الرائعة في حياة أحمد زكي باشا رجل الفكر والأدب أنه كان من الذين توسعوا خل الخلاف بين ملكي السعودية واليمن وهي جهود عظيمة وملخصة تحتاج إلى توثيق تاريخي يحفظ للرجل دوره العظيم.

(١٣)

وبالإضافة إلى هذا كله كان أحمد زكي باشا كاتباً دؤوباً، وقد كانت له مقالات شبه يومية في الصحف المتعددة وكان دائم الكتابة في الأهرام والمحلل والمقطم . وقد لمح الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه عن «حياة الرافعي» إلى أن مصطفى صادق الرافعي كان يساعد شيخ العروبة في كتابة مقالاته، لكن الأستاذ محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» دحض هذا التلميح تماماً بأدلة قاطعة.

(١٤)

وعلى سبيل الإجمال فإن أحمد زكي باشا كان مع أحمد تيمور باشا أفضل أدباء عصره المشتغلين بالحضارة العربية، والمتيمين بها ، وقد عرف بتفوقه محاضراً وكاتباً وباحثاً ومحفّقاً ، خطيباً ، وكان محافظاً على لغته وعروبتها ووطنيتها، يقبل نقد غيره برفق إذا

أصابوا، ويعرض على من لم يصب بعثف، في رسائل خاصة أو على صفحات الجرائد.

كتب المؤلفة باللغة العربية:

- ابن زيدون أو صفحة من مجالس الأنس في ليالي الأندلس، القاهرة، ١٩١٤ م.
- أربعة عشر يوماً سعيداً في خلاقة عبد الرحمن الأندلسي، مصر، ١٣٠٣ هـ.
- الترقيم في اللغة العربية، القاهرة، ١٩١٢ م.
- تقرير مرفوع لنظراء المعارف عن مدرسة المعلمين الناصرية، [نشير هنا إلى ما هو غير معروف من أن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على دار العلوم في فترة من الزمن] مطبعة نظارة المالية.
- الحضارة الإسلامية (أو دروس في الحضارة الإسلامية)، مصر، ١٩١١ م.
- خلاصة وجيزة على مباحث وأعمال لجنة إصلاح وتحسين الحروف العربية، المطبعة الأميرية، ١٩٠٣ م.
- الدنيا في باريس، ١٩٠٠ م.
- ذيل الأغاني، بهذا الاسم ذكره الزركلي وسماه أنور الجندي (ملحق الأغاني)، وذكر أنه لم يتمه.
- السفر إلى المؤتمر، بولاق ١٨٩٤ م، والمقتطف ١٨٩٣ م.
- عجائب الأسفار في أعماق البحار، ذكره الزركلي وذكر أنه لم يطبع.
- قاموس الأعلام الأندلسية، ذكر أنور الجندي أنه لم يتمه.
- قاموس الأعلام القديمة.
- قاموس الجغرافية القديمة (بالعربي والفرنسي)، مصر ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م.
- وصف مجالس المعدات والنائحات.
- المذكرات الجغرافية للمدارس الثانوية، بالاشتراك مع حسن على البدراوي، مطبعة محمد الوراق، ١٩١٢.
- معجم الكلمات الكلية.

- معجم الكلمات المضعة.
- مفتاح القرآن.
- ملخص الخطبة التي ألقاها أحمد أفندي عزت بلندن في ٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٢ م في جلسة مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع (عربي وفرنساوي)، بولاق، ١٨٩٢ م.

(١٥)

وله من الكتب المكتوبة باللغة الفرنسية:

- بيان الوسائل الموصولة إلى إحياء الآداب العربية بالديار المصرية.
- الطيران في الإسلام.
- علاقة المصريين مع الأندلسين.
- نقد العهدة النبوية الموجودة صورتها في دير الطور.

(١٦)

وله من الكتب المترجمة:

- تاريخ المشرق في الأزمان القديمة، نشر أولاً في المقططف ١٨٩٩ م، ثم في الهلال ١٩١٦: مختصر مترجم عن تاريخ ماسيرو طبعة بولاق.
- رسالة في المعارف العمومية بالديار المصرية، وبيان ما يلزم إدخاله فيها من الإصلاحات الضرورية : عهد محمد سعيد باشا، مصر ١٣٠٥ هـ (وهي الرسالة التي تعرف على أنها تقريره عن التعليم في مصر، أو حالة التعليم في مصر).
- الرق في الإسلام . ترجمة لرسالة أحمد شفيق باشا، بولاق ١٣٠٩ هـ، ونشره أيضاً في الهلال ١٩١٦، ١٩٣٤.
- مرجريت أو غادة الكاميليا، رواية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤ م، المكتبة الجارية ١٩٢٠ م.
- مصر والجغرافيا للدكتور فريديريك بنولا بك، بولاق ١٣١٠ هـ، الهلال ١٩١٦ م.
- قبيل الإعدام - رواية.
- نتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام، دار الكتب.

(١٧)

وله في ميدان التحقيق :

- الأدب الصغير، لابن المقفع.
- الأدب الكبير.
- الأنسان، هشام بن محمد الكلبي، المطبعة الأميرية ١٩١٤ م ، دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م ، ١٩٢٨ م ، ١٩٩٨ م.
- أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، هشام بن محمد الكلبي، ط ٢ ، دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م.
- الناج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ.
- التبری من معرة المعری.
- تجارب الأمم، لابن مسکویہ.
- مسالك الأبصرار في مالك الأمسكار، لابن فضل الله العمري، الجزء الأول.
- معجم الخريطة التاريخية للملك الإسلامية لأمين واصف، مطبعة المعارف ١٩١٢ ، ١٩١٦.
- نكت الهیمان في نكت العمیان، للصفدي.
- نهاية الأرب، للنویری حقق أجزاء منه.

(١٨)

ونعود الآن كما وعدنا ، إلى الميدان السادس من ميادين تفوق أحد زكي لنلقي عليه بعض الضوء الذي لا بد منه في تصوير نشأة جانب حضاري مهم في الثقافة العربية الموسوعية .

كان أحد زكي كما ذكرنا أبرز نموذج للذين عرفوا بالولع بالكتب وجمعها واقتنائها وإهدائها في النهاية للوطن ، ويقدوته في هذا المجال لعب دوراً كبيراً في نشأة المكتبات الخاصة وفي دعم المكتبة الوطنية (دار الكتب) على وجه العموم ..
ضمت مكتبه الفريدة نوادر قيمة من المطبوعات والمخطوطات النفيسة ،

والمستنسخات بالقلم أو بالتصوير الفوتوغرافي المتاح في ذلك العصر .
 (١٩)

من الجدير بالذكر والفخر والإعجاب أن أحمد زكي باشا كان يخصص نصف راتبه الشهري لشراء الكتب، والنصف الثاني لسائر حاجاته .
 وكان يتابع أخبار الوفيات للبحث عن الأعلام الذين لهم مكتبات، فما أن تصفى أي تركة حتى يشتري منها ما يستطيع .

- اقتنى مكتبة البرنس محمد إبراهيم .
- اقتنى مكتبة جبرائيل بك المسلح عام ١٩١٤ م بما قيمته ٣٠٠ جنيه ذهباً .
- اقتنى مكتبة محمد بك واصف النفيسي، وقد كلفته نحو ألفي جنيه .
- اقتنى مكتبات على باشا إبراهيم (الأول) وزير المعارف، والشيخ رضوان العفشي، وحسن حسني باشا .

(٢٠)

ظل أحمد زكي باشا يسعى وراء غايته كلها ذهب إلى أوروبا في مهمة علمية .

- عندما سافر إلى أوروبا أول مرة (١٨٩٢ م) اقتنى مجموعه ضخمة من الكتب الأوربية المعنية بالشرق العربي .
- وفي زيارة للأستانة (١٩٠٤ م) استطاع أن يحصل على عدد كبير من الكتب المطبوعة والمخطوطات .
- وفي ١٩٠٩ زار الأستانة وزار مكتبة السلطان في قصر أندرلون بطبقو سراي ، ونسخ منها بالفوتوغرافيا عدداً من ذخائر المؤلفات العربية .
- وفي دمشق استطاع بمساعدة أصدقائه ومعارفه أن يجمع مجموعة قيمة من الكتب المطبوعة والمؤلفات .

كذلك فقد استحضر عشرات الكتب من الهند والعراق .

- ولم يتوقف أحمد زكي عن استحضار المستنسخات وكانت في ذلك الوقت بطريقة الصور الفوتوغرافية .

على أن الأهم من الاقتناء والتجميع أن أحمد زكي باشا استوعب ما في خزانته من مصادر وراجعها وعلق على هواشمها ، وفهرسها في جزازات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن أو الباب الذي يرجع إليه .

- وقد خرج بمكتبة أو خزانة عن حدود الفردية فأناحها للآخرين حتى أصبحت الخزانة مرجعاً لمن يريد أن يعد بحثاً، سواء كان من الغربيين أو الشرقيين.

(٢١)

كان الأستاذ محمد كرد على معجباً بهذه المكتبة وقد زارها وكتب عنها مقالة في مجلة «المقتبس» عام ١٩١٢ ذكر فيها أن المكتبة تستحق أن تكون مراة يرى فيها الطالب معارف الشرق وعلومه، سواء كانت من نفائس الشرقيين العرب مسلمين أو غير مسلمين، أو من قرائح الإفرنج. ومن الطريف أن الأستاذ أنور الجندي أشار إلى أن أحمد زكي باشا وأحمد تيمور كانوا أشيه بفرسي رهان في حلبة واحدة في عياديها بالمخروطات والمكتبات القديمة، وإن اختلافاً في الأسلوب، فزكي باشا له طريقة الاستعراضية كلها عشر على كتاب أو اكتشاف نصاً، فإنه سرعان ما يعلن ذلك ويقيم الدنيا ويقعدها، بينما كان أحمد تيمور يكتفي بأن يطلع عليه أصحابه ورواد ندوته.

(٢٢)

وربما كانت نهاية هذا الفصل مقاماً لاستعراض نموذج البير وقارطية المصرية القاتلة في معاملة التراث الوطني الحديث ، على نحو ما حدث مع مكتبة أحمد زكي باشا ، وسنلخص قصة الحكومة في المكتبة وقصة المكتبة مع الحكومات المتعاقبة في نقاط متواالية .

- وافق مجلس النظار على طلب أحمد حشمت باشا ناظر المعارف في أكتوبر سنة ١٩١٠ بتخصيص مكان خاص لأحمد زكي باشا في دار الكتب المصرية وإعطائه رخصة دائمة.
- ظلت الخزانة مفتوحة الأبواب كل يوم من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى متتصف الليل في دار الكتب يتواتد عليها الطلبة الباحثون ويستفيدون منها .
- كان أحمد زكي باشا لا يألو جهداً في توسيع نطاقها والعمل على نموها باقتناه الكتب المطبوعة والمخطوطات حتى أصبح المكان على سعته يضيق عن هذه الزيادات المتالية .
- رأى أحمد زكي باشا من أجل تعليم النفع، وقف أرض تبلغ مساحتها ١٥٠٠ متر مربع يمتلكها في جهة المنيرة، حيث تكثر المدارس التابعة لوزارة المعارف (مدرسة المعلمين الناصرية، ومدرسة الطب، والصيدلة، ومدرسة المساحة وغيرها)، وأراد أن يقام على هذه الأرض مبني لتلك الخزانة وتكون هي وما عليها من البناء وقفاً لعموم طلبة العلم ، بحيث تكون له النظارة عليها مدة حياته، وتكون بعد وفاته مشمولة بنظر ديوان عموم الأوقاف مستقلة بنفسها وقائمة بذاتها .

- وافق مجلس النظار على الترخيص لنظارة المعارف في نقل الخزانة إلى الدار التي تبني لها في الأرض التي تبرع بها لها صاحبها، وذلك عقب إتمام البناء وتسجيل الوقفية .
- في أغسطس عام ١٩١٣ م بدأت حملة دشتتها «الأهرام» لتقريره العمل.

(٢٣)

على أن الأمور لم تمض في سلاسة إذ حدث ما عكر صفو العلاقات بين الحكومة وأحمد زكي باشا ، ومن ثم تأثرت المكتبة العظيمة بنزاعات صغيرة :

وقد خلاف بين أحمد زكي باشا والحكومة عام ١٩٢١ ، فطلب إليه نقلها من دار الكتب ، فأوقفها وقدمها هدية للأوقاف ، وحرر الوقفية في ٢١ من أغسطس ١٩٢١ م في محكمة مصر الشرعية واشترط عدة اشتراطات منها أن يكون مقرها مدرسة السلطان الغوري ، وأن تبقى مستقلة باسم «الخزانة الذكية» فلا تضاف إلى دار كتب أخرى ، أو مدرسة ما ، وأن تكون المطالعة في قبة الغوري .

لكن وزارة الأوقاف لم تكن بطبعها مهيئة لمثل هذه المهمة ، فأضافتها إلى قسم المساجد ، ولما هطلت الأمطار في ديسمبر ١٩٢٥ م كادت تغرق لو لا أن الحارس استعان بمهندس لجنة الآثار العربية .

ظللت مكتبة شيخ العروبة هكذا حتى صدر قرار وزير الأوقاف في ديسمبر ١٩٣٥ م بنقلها من قبة الغوري إلى دار الكتب المصرية ، وظللت حبيسة مهجورة في الغرفة رقم ١٨ من مبني دار الكتب بالقلعة .

انتقلت الخزانة بعد ذلك ، وحافظت مع المكتبات الخاصة الأخرى في الطابق الثامن بمبني دار الكتب على كورنيش النيل ثم سرى عليها ما سرى على المكتبات الأخرى من تجليات مفسدة لرؤساء دار الكتب في عهد البيروقراطية والمظهرية .

(٢٤)

وقد شغل أحمد زكي باشا نفسه في سنوات حياته الأخيرة ببناء مسجد عظيم جمع له من فنون العمارة والزخرفة ما عبر عن ذوقه وعطائه وجبه للإسلام وحضارته وفنونه . لا يزال ذكر أحمد زكي يمحظى بالتكريم ، والتقدير له ، ومؤلفاته ، ومترجماته ، ومكتبه وريادته وجهوده .

وقد كتب الأستاذ أنور الجندي كتاباً عنه بعنوان «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة» ، صدر في سلسلة «أعلام العرب» سنة ١٩٦٦ م .

الفصل السادس
أحمد تيمور باشا
١٨٧١-١٩٣٠م

(١)

كان جد أحمد تيمور من صحبو محمد على باشا وعمل معه وعين كاشفاً فمحافظاً، أما والده إسماعيل باشا تيمور فوصل إلى رئاسة الديوان الخديوي، وقد توفي بعد ولادة ابنه أحمد بستين، وقيل بل بعدها بشهور قليلة.

ولد في ٥ من نوفمبر ١٨٧١م ، ومن الطريف أنه ولد بعد شيخ العروبة أحمد زكي باشا بأربعة أعوام ، وتوفي قبله بأربعة أعوام ، وقد عاش كلاهما في القرن التاسع عشر عمرًا يقل عاماً عما عاشه في القرن العشرين إذ عاش تيمور ٢٩ عاماً في التاسع عشر وثلاثين في القرن العشرين ، وعاش أحمد زكي باشا ٣٣ عاماً في التاسع عشر و ٣٤ عاماً في القرن العشرين .

تولت شقيقته الكبرى عائشة التيمورية تربيته هي وزوجها محمد توفيق، وقد حفظ بعض القرآن على مدرس خاص ، وتلقى مبادئ العلوم في مدرسة كلير الفرنسية، وكانت أرقى المدارس في وقتها، ثم انصرف إلى تعليم نفسه تعليماً متميزاً في بيته ومكتبه و المجالس العلماء، وكان من تلامذة عليهم الأستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ حسن الطويل، والشيخ الشنقيطي .

أتقن الفارسية والتركية على المرحوم حسن عبد الوهاب، وتعلم من أستاده محمد عبده أن تكون له ندوة كندوته.

وقد توفيت زوجه وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، فلم يتزوج بعدها حفاظاً على مشاعر أبنائه ، وصار لهم أباً وأمّا ، وتوفي ابنه محمد تيمور قبل وفاته بثماني سنوات ، فأصيب بالقلب وزاد من مرضه أن ابنه الثاني محمود اعتلت صحته .

(٢)

كان أحد تيمور عالماً موسوعياً عن حق كما كان مثقفاً مطلعاً وبحاثة، وقد خصص

حياته للبحث والتحقيق والكتابة والدراسة والتصويب، لكنه آثر ألا يسارع إلى نشر مؤلفاته لأنه ظل معنباً بتهذيبها في كل حين، وقد تألفت بعد وفاته (كما سذكر) لجنة لنشر المؤلفات التيمورية، ونشرت عدداً كبيراً من أعماله، ومع هذا لا تزال بعض أعماله القيمة مخطوطة.

كان أحمد تيمور باشا صاحب شخصية ناقدة قادرة على البحث والتحليل، وكان لسعة أفقه وغزارة علمه يجد أن من واجبه أن يقدم لدراساته وأرائه بالحديث عن المعلومات الوافرة التي تخص ما يتحدث عنه، وهكذا ظهرت في بعض أعماله خصال موسوعية يظنهها البعض مرتبطة بالنقل والترتيب وحدهما، بينما هي موهبة متكاملة تقود إلى إنشاء العلم إنشاء على نحو جديد شامل، ولعل ما فعله في كتابه «الأمثال العامية» يدل على هذا بوضوح، فالكتاب مرجع لا غنى عنه لكل دراسة فولكلورية على أي مستوى، كما أنه مرجع للهجة العامية، ولتصريحات الجملة المتبعة فيها.

قال محمد كرد علي: «كنت إذا عرض لي أو لبعض أعضاء المجمع إشكال لغوي أو تاريخي، أو أحببت أن أعرف كتاباً في موضوع يهمني البحث فيه، لا أجده من يشفى غلتي، خصوصاً بعد فقد أستاذنا الجزائري، غير أحمد تيمور».

وذكر محب الدين الخطيب أن العلامة الشنقيطي صرّح بأنه لم ير في مصر منْ يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده، وأحمد تيمور.

(٣)

يصدق عليه أنه من النبلاء الذين عاشوا للعلم، وكان أغنى ما عنده في الوجود: أبناؤه، والدين الإسلامي، واللغة العربية، وخزائنه الخاصة.

كان بالإضافة إلى هذه السمات العلمية دمتُ الخلق، كريم الطبع، وقد تحلى بكثير من الصفات الشخصية النادر اجتماعها من الجود والكرم، والتواضع، ونكران الذات، وبذل المعروف من جهده وعلمه وماله، وكان منقبضاً عن الجمهور، لكنه كان حفياً بالعلماء وبمحالسهم.

وكان له نشاط اجتماعي وخيري ومدنبي، وقد شجع إنشاء جمعية الشبان المسلمين، وبذل لها من ماله. كما شارك في أنشطة جمعية الهداية الإسلامية التي رأسها الأستاذ الشيخ

محمد الخضر حسين.

وعلى الرغم من أصله الكردي فإن تيمور باشا كان يتعصب للعروبة تعصباً تاماً، وقد رغب إليه نور الدين مصطفى بك أن ينضم إلى جمعية تورانية تضم غير المصريين من الأجناس الأخرى فرفض رفضاً تاماً، وكان تعصبه للغة العربية وللحضارة الإسلامية مضرّ بـ الأمثال، ولم يكن يؤرخ إلا بالتاريخ الهجري، وقد اضطر البنك السويسري إلى أن يقبل منه شيكاته وتعاملاته بهذا التاريخ.

(٤)

أما أفضاله المؤسسية والحكومية فتتمثل في نشاطه في دار الكتب، حيث اختير عضواً في مجلس إدارتها فأبدى الآراء الذكية في تنظيم الدار وتنسيق مقتنياتها على النحو الذي استمر بعده. كذلك اختير عضواً في لجنة إصلاح الأزهر عام ١٩٢٤م، فكانت آراؤه التي شارك بها صدى ل تعاليم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد العبد.

ويذكر له أنه اشتراك بجهد وافر في لجنة إحياء الكتب العربية التي أسسها الأستاذ محمد عبد العبد.

وقد اختاره الملك فؤاد لعضوية مجلس الشيوخ الأول ، ومنحه البашوية . ■

كان بيت تيمور في درب سعادة بحي باب الخلق صالحونا ثقافياً دائماً وكذلك كان قصره في الزمالك، وكذلك كانت عمامة تيمور في النيل، وعزبه في قويتنا ، وكان المثقفون من العراق والشام واليمن والمغرب العربي يتواجدون إلى هذه الصالونات الأدبية الأربع، يقيمون بالقرب منها ويترددون عليها بالأسباب، حيث يراجعون ما انتهوا إليه على ما هو متاح من الكتب ونوادر المخطوطات التي تنفرد بها.

(٥)

كان لأحمد تيمور فضل كبير على التراث العربي في ميادين عديدة ، فقد شرع مبكراً فيما عرف به من نشاط ضخم في جمع المخطوطات العربية، وكان حريصاً على الحصول على صور فوتografية للمخطوطات العربية من مكتبات روما والأسنان وأثينا وبارييس والفاتيكان، وقد ضمت خزانة كتبه عشرين ألف مجلد، وقد سجل كثيراً من التعليقات على هوا متشظطاته وصحف كتبه، وكان لا يدخل بمخطوطاته على من يريد الانتفاع

بها، بل كان يرسلها إلى من يطلبها على نفقته ، وسوف نتحدث في نهاية هذا الفصل عن مكتبته وتكوينها وقيمتها وفضلها .

(٦)

على صعيد علم التاريخ يرجع إليه الفضل في استكمال الحلقة الناقصة في التاريخ المصري ، ما بين تاريخ ابن إياس المصري وبين تاريخ الجبرتي ، وقد كتب مخطوطاً لم ينشر بعنوان «ذيل تاريخ الجبرتي» .

ومن المعروف أن أحمد تيمور هو الذي تولى مراجعة المواد التاريخية في دائرة معارف القرن العشرين التي وضعها الأستاذ محمد فريد وجدي وسجل تصويباته في مخطوط بعنوان «نقد القسم التاريخي من دائرة معارف فريد وجدي» .

ووضع كتاباً مهماً مطبوعاً ومتداولاً ومقدراً إلى أقصى حد عن «الأثار النبوية» .
وتولى في رسالة مطبوعة تحقيقاً لوضع قبر الإمام السيوطي .

(٧)

عني أحمد تيمور بالجوانب الحضارية والبروتوكولية والمراسمية في التاريخ الإسلامي ، فألف كتاباً مرجعاً مطبوعاً عن «الألقاب والرتب» ، وقد كان هذا الكتاب بمثابة مرجع قيم لأصحاب القرار في البلاد العربية حين رغبوا في العدول عن الألقاب التركية إلى الألقاب العربية ، كما ألف كتاباً آخر عن «تاريخ العلم العثماني» لا يزال بمثابة المرجع الأول في مجاله .
ووصلت أعماله إلى ذروة عاليه في تاريخ الحضارة بكتابيه المراجعين «التصوير عند العرب» و«لعب العرب» ، وهما كتابان من أهم كتب تاريخ الحضارة .

كما عني بتتبع التراث الهندسي في الحضارة العربية تتبعاً فنياً وتاريخياً وجمالياً في دراسة مهمة بعنوان «ترجم المهندين العرب : أعمال المهندين في الإسلام» .

والحق أن أحد تيمور يعد رائداً فذاً في دراسات التاريخ الحضاري العربي التي لم تزل بحاجة إلى عناية ، ويدلنا على هذا كتابه في ترجم المهندين فهو تاريخ حي لجانب من أهم الجوانب في الحضارة الإسلامية ، وفيه انتصار للعقلية العربية في مجال الهندسة ، ودحض للافتراءات التي أساءت تصوير النضج العقلي لدى الخلفاء المسلمين في استعانتهم بخبراء

أجانب كاستعاناً بوليد بن عبد الملك بالصناع الروم في أبنيته.

وقد أثبت بها حق من وقائع تاريخية وروايات مدى ما وصل إليه الفن الهندسي العربي من قدرة ونجاح، كما برهن على أن الاستعana بالأجانب كانت عن ثقة بالنفس وعن رغبة في زيادة التجويد.

ولم يقف أحد تيمور عند حدود الحديث عن هندسة التصميم والمعمار، لكنه كان حفيا بالإشارة إلى فروع الهندسة التطبيقية التي نبغ فيها العرب كالنقش والدهان والرسم والزخرفة، كما كان تيمور حريصاً على تحقيق المصطلحات الهندسية التي حفلت بها الحضارة الإسلامية على مدى قرونها المتصلة.

(٨)

كان أحد تيمور باشا سابقاً لعصره في لفت الأنظار إلى أهمية دراسة دور الحضارة الإسلامية في العلوم التطبيقية المختلفة. وقد احتفظ بذخيرة قيمة من الآثار الإسلامية من نقود وساعات أثرية وألات فلكية وأواني وعيون زجاجية، فضلاً عن مجموعة من الصور الخاصة بأبطال التاريخ: صلاح الدين الأيوبي، وسليم الأول، وعبد القادر الجزائري.

وكان تيمور باشا رائداً للعلوم وفنون التسجيل الحسي والوثائقي للتاريخ (قبل أن يتموا هذا الفن بطريقه مؤسسية ودولية) وقد أذنت له الحكومة المصرية في تصوير «الخليج المصري» قبل ردمه ليسجل حياة الخليج كان له الأثر الكبير في معمار القاهرة فترة من الزمن.

ويتصل بهذا ما كان لأحد تيمور أيضاً من جهود متميزة في تاريخ الفقه الإسلامي والفرق الإسلامية ، وله كتابان مطبوعان «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة» و«الزيدية ومنشأ نحلتهم».

(٩)

ولأحد تيمور باشا نشاط متميز في ميدان الترجم، وقد وضع كتاباً مرجعياً في ضبط الأعلام، ووضع مرجعاً في غاية الأهمية في الترجم: «أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري»، وعلى الرغم مما كان متوقعاً لهذا الكتاب من شمول وسعة، فإنه يُروى أن تيمور باشا مرقق أكثره بسبب ما وجده من إلحاح معارفه عليه بأن يكتب عن أقاربهم بما لا يتفق مع حقائق التاريخ.

الأزهر باعثًا لشرارة النهضة العربية

ويميل منهج أحمد تيمور في كتابة الترجم إلى منهج شبه قصصي ، حتى إن الدكتور زكي مبارك فيما نقله عنه الدكتور محمد رجب البيومي أشار إلى أن روح القصاص كانت تكمن لدى الرجل وحين غلبتها روح البحث فرت منه إلى ولديه محمد ومحمود.

كذلك ألف أحمد تيمور باشا «ذيل طبقات الأطباء» ولا يزال مخطوطاً، إضافة إلى جهده في الترجمة للمهندسين في كتابه السابق الإشارة إليه.

كما اختص تاريخ أعلام أسرته بكتاب مطبوع هو «تاريخ الأسرة التيمورية».

(١٠)

ولأحمد تيمور جهود لغوية رائدة، وقد كان عضواً في مجمعين لغوين من المجامع اللغوية الباكرة التي لم يقدر لها الاستمرار في الحياة، وله دراسة متميزة عن «السياع والقياس» وأخرى عن «أسرار العربية»، وقد طبعت هاتان الدراسات.

كما أنه ترك دراستين تصويبتين مهمتين تم طبعهما عن «تصحيح لسان العرب» و«تصحيح القاموس المحيط»، وبهذا كان لأحمد تيمور فضل كبير في علم متن اللغة ، وفي ارتياد آفاق دراسات أو علم تصحيح أخطاء المعاجم .

وقد ألف كتاب «معجم اللغة العربية» ليرد به على الدعوة التي قام بها المغارضون لنصرة العامية على العربية ، كما ألف كتاب البرقيات ، ليشهد بفضل اللغة واتساع صدرها.

كما وضع فهرس خزانة الأدب في ١٣ فهرساً (مفتاح الخزانة) .

(١١)

أما دراساته في تاريخ الأدب العربي فتتم عن إمام واسع وتجويد منشود ، وله متنبيات من الشعر العربي لا تزال مخطوطة، كما أن له دراسة مطبوعة عن «أوهام شعراء العرب في المعاني»، ودراسة أخرى مخطوطة عن «أبيات المعاني والعادات»، وله كتاب مطبوع شهير عا نسميه الآن كتب «التغيير الوظيفي» المبكرة هو كتاب «البرقيات للرسالة والمقالة»، وقد حظى هذا الكتاب بشهرة متصلة.

كذلك كان تيمور باشا من أصحاب المتنبيات الشعرية التي عبرت بوضوح ودقة عن رقى الذائقـةـ الشـعـرـيـةـ لـدـيـهـ وـقـدـ تـرـكـ مـخـطـوـطـاـ بـعـنـوانـ :ـ «ـالمـتـنـبـيـاتـ مـنـ الشـعـرـ العـرـبـيـ»ـ .

وقد ظعني بدراسة الفكر الديني لأبي العلاء المعري في دراسة قيمة : «أبو العلاء المعري وعقيدته»، مقدماً نموذجاً للدراسة المتأنية التي تصل إلى حقيقة الفكر وجوهرها بعد استقصاء شامل، وقد انتهى فيها إلى أن ما يدل على إيمان أبي العلاء صريح في لفظه، وأن الذي يتوهم محتمل لوجهين، وكان في إنصافه للمعري يذهب إلى الدعوة إلى فهم آرائه من زاويتها الإيمانية ، أي ما يوافق من أحد الوجهين.

(١٢)

إما إسهامه الذي لقي . ولا يزال يلقى - شهرة وذيعاً واعتماداً عليه حتى الآن، فهو إسهامه في ميدان الأدب الشعبي وبصفة خاصة في جمع وتحقيق وفهرسة دراسة الأمثال العامة، وقد جمعها في مجلد ضخم ورتبتها حسب حرف الهجاء الموجود في أول المثل، وشرحها شرعاً وافيا دون تزيد، كما أشار بلمحة سريعة إلى أشعار العرب وأقوالهم التي عبرت عن مضامين هذه الأمثال العادية.

والحق أن لأحمد تمور جهداً متصلًا في المجال المتصل بلغة الشعب والأدب الشعبي في كتب لا يزال بعضها للأسف مخطوطاً، منها «الألفاظ العامة المصرية» و«مخطوط «الكتابات العامة» وهو مطبوع ومخطوط «قاموس الكلمات العامة» في ٦ أجزاء.

(١٣)

وقد كان أحمد تمور قارئاً متابعاً وكانت ناقداً لما ينشر في للمجلات الثقافية الصادرة في عهده، كاللويد واللال والفتح والهدية والزهراء والقتبس والمقططف. وتمثل تعليقاته على بحوث ومقالات غيره ثروة من التحقيق والتدقيق والعلم الغزير . وأ أشهر أعماله في هذا المقام كتابه المطبوع «ضبط الأعلام» وهو كتاب قيم لا يستغني عنه المحققون ولا الكتاب .

وقد أوردنا في موضع آخر من كتابنا *نماذج لرسائله العميقه والمفيده في ضبط المفردات والأعلام والكتابه والإملاء والنصوص* .

(١٤)

ونأتي إلى عدد من المؤلفات ذات الطابع المعرفي والموسعي :
أما كتابه «النوادر» أو نوادر المسائل فمخطوط ثمين جمع فيه ما وقعت عليه عينه من طرائف الأخبار والروايات.

وله بالإضافة لهذا مخطوط كتاب «معجم الفوائد» الذي يعتبره الذين اطلعوا عليه بمثابة الكتاب الأم لمؤلفاته كلها.

أما كتابه «الذكرة التيمورية» فهو ابرز مؤلفاته الموسوعية المختصرة المقيدة للمشتغلين بالدراسات الأدبية، والتاريخ، والبحث العلمي. وهو في حقيقته دائرة معارف في الدين، وشئون المجتمع، والأجناس والسكان، والطوائف، والبحار، والأنهار، وقد كان الوصف (القريب من العلم) لهذه السمات الموسوعية أنها الفوائد والنواذر.

وقد كتب الأستاذ خليل ثابت في تقادمه لهذا الكتاب:

«إن مؤلفه لم يتناول فيه من المسائل ما هو معروف في مظانه، وما يتناقله العلماء في المؤلفات المشهورة، وما يتوافر للمطالع أن يصل إليه بالرجوع إلى فهارس الكتب مما هو قريب التناول بأقل بحث وأقل نظر، وإنما اختص هذا المؤلف النادر المثال، بل الفريد المثال، أن حوى اللقطات الغربية واللفتات الرائعة مما تنطوي عليه بطون الكتب والأسفار، في اللغة والعلم والأدب والتاريخ، ولم تقتصر تلك اللقطات واللفتات على ما هو مطبوع من نفائس الكتب العربية، بل تضاف إليها اللقطات واللفتات من نفائس المخطوطات التي احتوت عليها الخزانة التيمورية الشهيرة التي تحتل ركناً مهماً من أركان خخطوطات دار الكتب المصرية، التي حرثها صاحبها حرثاً، وقتلها بحثاً، واستصنف منها الزبد، وجع الشذور، ولم الشتات، وضم كل شكل إلى شكله، وقرن الشيء بضله، حتى تكون لديه النظائر والأشباه، كما تكون لديه النقائض والمفارقات. وقد وضع المؤلف في ذاكرته ونصب عينيه أكثر من سبعينمائة موضوع، اتخذها رؤوس مباحث، وأمهات مسائل، ثم دار في خزانة كتبه في أبواب المعارف المختلفة، وظل يقرأ وهو يُذكي الفطنة، ويُحدّد النظر، حتى إذا لمح شيئاً يتصل بأحد هذه الموضوعات التي جعلها مباحث ومسائل، استخرجه من مصدره، واستبقاءه عنده ليضيف إليه ما يكمله ويلائمه، ولا يزال كذلك حتى تتألف من كل موضوع صفة حافلة بشتى التوجيهات إلى المصادر والراجع والأصول».

(١٥)

وضرب الأستاذ خليل ثابت بعض الأمثلة الحية لما احتواه كتاب أحد تيمور من فوائد نواذر فقال:

«وإن القارئ الباحث ليجد في «التذكرة التيمورية» من الفوائد والدرر ما لا يصل إليه إلا بعد بحث طويل مرهق، مثل ذلك: إن أول ملوك الفرس (جيومرت كلشاه) ومعناه ملك الطين. وأن (الأتابك) معناه أبو الأمير. وأن (إرم ذات العِماد) قيل إنها اسم لدمشق». .

«وأن (الأرنةود) هم طائفة من الألبانيين. وأن (أمير الجيوش) هو بدر الجمالي. وأن (بابليون) يعرف بقصر الشمع. وأن (بحر الروم) هو البحر الأبيض المتوسط. وأن (بحر الظلمات) هو المحيط الأطلسي. وأن (بحر القلزم) هو البحر الأحمر. وأن (الجاشنكير) هو الملك المظفر سلطان مصر. وأن (الدربيند) هو باب الأبواب». .

«وأن (دهاة العرب) هم: الحُبَّاب بن المنذر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس ابن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بُدَيْل، وزيد بن أبيه». «وأن (الرَّوزناجة) هي كُراسة جمع بها الصاحب بن عباد ما كان يكتبه إلى ابن العميد من بغداد لما زارها، يصف ما شاهده فيها ومن اجتمع به، وأن فيها تدبر كثير ببعض مشهوري الشعراء والأدباء». .

«وأن (زقاق سبطة) هو مضيق جبل طارق. وأن (زياد بن أبيه) استلحقه معاوية بن أبي سفيان بأبيه أبو سفيان ، وأن (شمہورش) هو القاضي الجنى». .

«وأن (الشهب السبعة) هم: الشهاب ابن حجر، والشهاب بن الشاب التائب، والشهاب بن أبي مسعود، والشهاب بن مبارك شاه الدمشقي، والشهاب صالح، والشهاب الحجازي، والشهاب المنصوري». .

«وأن (الغُز) طائفة من الترك. وأن (قبر قيس بن ساعدة الإيادي) في جبل سمعان. وأن (الكُرُد) أصلهم من العرب. وأن (الملاهلة) وقعت بين الحافظ ابن حجر العسقلاني وبين ابن الأمين بسبب ابن العربي. وأن (المياطلة) هم أسلاف أتراك خلخ وكجينية بطخارستان». .

(١٦)

وكان أحمد تيمور باشا من التجدد والامانة بحيث أرشد ، في كتابه هذا ، إلى مواضع مهمة من البحث والتحقيق التي كان أسلافه قد أنقوها ، ومن ذلك إشارته إلى أن الشاعلي أجاد البحث في موضوع إلحاد (واو عمرو) في كتابه «خاص الخاص» وكذلك الجرجاني

في كتابه «الكتابات». وإشارته إلى أن محمد جليل بيهم قد تحدث أحسن الحديث عن (يأجوج وأmajog والسد) في العدد الخامس من «مجلة المقتطف». وأن هناك كلام مفيد للباحثين عن (اليمين والشمال) في «كتاب الحيوان» للجاحظ.

(١٧)

ونأتي الآن إلى الوصف الذي وصفه به نجله الأديب العظيم محمود تيمور حيث قال :
 «لو أن متتصفاً يتبع سيرة «أحمد تيمور» فيعرف كيف كان ورعاً شديداً الورع ، متخرجاً بالغ التخرج ، مطبوع النفس على حفاظ وانقباض ، مؤثراً للعزلة ما وسعه الإيشار ، زاهداً أيماً زهد في حومة الحياة وملطم الناس.. فأي نهج يتمثله المتتصفح لصاحب تلك السيرة ، حين يعامل بنيه ، في ذلك العهد البعيد ؟ وعلى أي نحو تراه يسوس فلذات كبده ، وهو هم راع ، وعليهم رقيب ؟»

«ألقيت عليّ نفسي هذا السؤال ، لأجيب عنه بما شهدت ، لا بما يعمد إليه متتصفح السيرة من تكهن واستنباط ، فما رأيكم من سمع ، ولا من خالكم من تخيل .. ولعل الجواب ألم بي ، أنا الذي كنت أحد أبناء «أحمد تيمور» حوله ، فشهدت كيف كان يقوم على تربتنا ونحن إخوة ثلاثة ، متلاقون على عاطفة وشعور ، وإن اختلفنا في الميل والزعارات بعض الاختلاف».

«في تلك الحقبة التي نشأنا فيها ، منذ نصف قرن مضي ، كانت التربية المنزلية تتبع للأباء نحو أبناءهم ضرورة من القيود ، كما تفرض على الأبناء لآبائهم أو وانا من التقاليد ، فيما كان لولد أن يسلك غير المسلك الذي يرضاه أبوه ، وما كان لأب أن يدع لولده في مراحه ومغاره سبيلاً إلى فكاكه.. فالإمرة حق الأبوة ، والطاعة واجب البنوة ، ومن شذ من الآباء لا يأمر فهو متهاون موصوف بالتفريط ، ومن ترد من الأبناء لا يطيع فهو مستخف موصوم بالعقوق. ولم تكن للأبناء حيلة أو وسيلة إلا الملاعة بين ما يأخذهم به آباءهم الحكام المسيطرة وما تهفو إليه نفوسهم الغضة التواقة إلى الحرية والانطلاق».

«وكانت هذه الملاعة هي المخادعة والاستخفاء ، وهي التفنن في إبداء الظواهر على الوجه الذي لا يثير غضباً ولا ملامحة ، فلكل ولد مهربه إلى مأربه ، في ست من الله أو ست من الشيطان! وكانت الفنون والحرف في تلك الحقبة الغابرة تتفاوت درجاتها في تقدير الناس ، فمنها الرفيع ومنها الخسيس ، وربما كان فن الصحافة وفن التمثيل أو حرفها

أبغض الفنون والحرف نصيباً من حظوة العامة والخاصة على السواء ، ولعل الجمهور يومئذ كان يتخد من ألقاب السوء والإصغار لقب «الجرنالجي» و«المشخصاتي».. فإن تولع بالصحافة أو التمثيل كريمٌ على أهله ، تتصوّر شفاههم رحمة له وإشفاقاً عليه! » .

(١٨)

هكذا تفوق الأديب الكبير محمود提مور في تصوير طبيعة تربية والده العظيم لأبنائه : « وحسبني في تجلية ما كان من صنيع أبينا في تربيته لنا ، وإشرافه علينا في تلك الحقبة التي أسلفت وصفها ، أن أذكر أننا في متزلنا الذي كنا نأوي إليه ، ونحن من أبينا على مقربة ومرقبة ، أنشأنا لأنفسنا صحيفة خاصة ، نصدرها في المرة بعد المرة وأقمنا مسرحاً للتمثيل ، نخرج فيه الروايات واحدة بعد واحدة . وكنا نحن ومنأخذنا من الصحب ، نتولى في الصحيفة مهمة التحرير والطبع والنشر ، كما نضطلع في المسرح بشئون الإخراج والتمثيل والتفرج والانتقاد! » .

« وامتلك قيادنا علي مر الأيام هو الصحافة والتمثيل ، فتعلقنا بها كل التعلق وتعمقنا فيها كل التعمق ، حتى إن أوسط الأخوة زاول التمثيل في المسارح العامة علي أعين الناس ، وحتى إتنا معاً أصدرنا صحيفة السفور خالصة للأدب منشورة علي الجمهور ، وبذلك أصبحنا نعد من محترفي الصحافة أو أشباه المحترفين . وكنا نري أبينا يمتعض من ذلك شيئاً ، ولكن في ترفق واتناد ، وينهانا عن التهادي والسرف ، ولكن في غير جزم ولا مصادرة . ويتحيل لتوجيهنا إلى الدرس والاستذكار دون أن نحس منه وطأة التوجيه ومرارة الإلزام . ولم يكن يقف في طريقنا إلى ما يعود الآباء من هو الصبا وعيث الشباب ، وإنما كان يجذبنا إلي محاسنة وملائنة ، فیناقشنا مناقشة الأنداد للأنداد ، ويشير علينا بما يحب ويرضي ، تاركاً لنا أن نسلك السبيل الذي نختار» .

« عاش بين التلال من كتبه ، فلم يأخذ أحدهنا نحن أبناءه بأن يكون معه يقرأ له ، أو ي ملي عليه ، أو يستملي منه ، أو يطالع بجانبه بل يدع ذلك لأنفسنا خاصة ، شئنا أو أبيناه ، فلم يفرض علي أبينا أن يجدوا حذوه فيها يستثن من سنة وما يرتضي من سلوك! » .

(١٩)

وقد أشار أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن الذي حفظه إلى الكتابة عن أحد提مور باشا ، « كانت ناحية لها دلالتها بعيدة عن نفسيته الكبيرة ، ذلك أنه ترك

مخطوطات كثيرة من قلمه ، كان يستطيع دون جهد ما أن ينشرها على الناس ، فلم يشا الإعلان عن نفسه بذلك ، وقد كان يشتري المخطوط القديم بعشرات الجنيهات ليضمه إلى مكتبه التي تقدر بعشرات الآلاف . ولكن لم يُعن بمنفعة ضئيلة ينشر بها إنتاجه الظاهر ، فرارا من الشهرة التي يتکالب عليها الكتاب . وقد لحظته عناية الله فقدرت مؤلفاته بعد وفاته لجنة علمية تقوم على نشرها العلمي الدقيق وذلك ما يطمئنا إلى عدالة القدر ، إذ الأعمال بالنيات».

«وقد عاش الرجل في عصر كانت المقالات العلمية به تجد تشجيعاً مادياً من أصحاب الصحف ، وحسب الكاتب أن يكتب فينشر ، فذلك كل ربحه مما يعاني من البلاء ، ولكن تيمور كان يتبع المقالات الجيدة في صمت ثم يسأل عن أصحابها المغمورين ، فإذا وجدتهم من ذوي الحاجة إلى التشجيع قدر لهم مكافأة طيبة ، لكل مقال يقرؤه ، وقد أشار الأستاذ محمد علي غريب إلى شيء من ذلك فيما كتبه عن نفسه ، مما يدل على أن العلامة تيمور رحمة الله كان ذا رصيد خلقي متاز ، فهو يسقط غيشه حيث يصادف الأرض الطيبة في صمت هادئ ، كيلا يثير حوله الضجيج» .

«إن رجلاً متواضعاً ينحو هذا التحو المثالي في منهجه ، لجذير بتردد مآثره ، وبخاصة إذا كانت حياته شذوذًا غريباً بين أبناء طبقته ، فأكثر من نشوا نشأته لم يكونوا يفكرون في علم أو أدب أو جهاد ، بل عكفوا على لذائذهم الفانية في النوادي المترفة والسهرات الصاحبة . وقد غشيت عقولهم طبقات من الجهل المتراكם ، كما غشيت نفوسهم طبقات أخرى من التبلد والجمود» .

ويصل الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن يصف تيمور باشا بقوله :

«راهب يسبح في دير العلم ويواصل الجهد الحافل في البحث والتنقيب ، مضحيا بأعز ما يملك من صحة ومال وقت» .

(٢٠)

ومن المشهور أن الإمام الشهيد حسن البنا تحدث عن معرفته بفضل أحمد تيمور باشا وفضل أصحابه في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية» حيث قال :

«كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية ، وكانت قرب محكمة الاستئناف ، حيث نلقي الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفى

الإسلامي القدير «السيد محب الدين الخطيب» ، ونلتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحيثهم الدينية ، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين التونسي ، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، وأحمد باشا تيمور رحمه الله تعالى...»

(٢١)

حظي الأستاذ تيمور بكثير من التقدير في كتابات المصنفين والمورخين ، كما كتب عنه الأستاذ محمد كرد علي في «ذكريات شخصية» والشيخ محمد الخضر حسين في مجلة «المهداية» ، وخير الدين الزركلي في مجلة «المقطف» الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة «المنار».

وقد جمع الشيخ محمد ناصر العجمي ما كتب عنه في كتاب قدم له كل من الدكتور عبد الله بن يوسف الغنيم رئيس مجلس إدارة الصندوق الوقفي للثقافة والفكر ، والدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومن مقدمة الأستاذ العجمي نقل قوله: «حفظت لنا كتب التراث وأخبار العلماء المغرمين بالكتب والعناية بها ، والاهتمام بشأنها ، والحرص الأكيد على الحصول عليها ، والشغف بكل ما له صلة بها ، فهي حديثهم العاطر ، وجليلهم السامر ، يغدون أرواهم منها في كل وقت ، ويقطفون من ثمارها التي لا تنتهي ، وإن من أولئك الذين كان لهم غرام بالكتب وفرح بالحصول عليها ، العلامة الجليل والأديب اللغوي أحمد تيمور باشا صاحب أعظم خزانة خاصة في القاهرة ، فقد انصرف رحمه الله تعالى بده حياته العلمية إلى جمع نفائس الكتب والمخطوطات واستجلبت له من شتى الأماكن وكان يدفع ثمنها بسخاء ، ويرى أن المال يذهب ويعود ، وأن الكتاب النادر لا يعرض بمال ، وهذا قصده تجارة الكتب والوراق ، وكانوا يختصونه بأحسن الكتب والمخطوطات ، وكان هو يختار منها الجيد ، ويتقى أحسنها فيضعه في مكتبه».

«ولم تكن سمة العلامة أحمد تيمور باشا تقف عند هذا الحد ، بل وصلت إلى العناية الشديدة بترتيب مكتبه ، وتقسيمهها عدة أقسام ، وخدمتها بالفهارس المفصلة ، وكان لا يدخل في مكتبه كتاب إلا وقرأه واحتفى به ، وقد دخل هذه المكتبة حقاً مشاعلاً للعلماء والباحثين من جهات الشرق وأنحاء الغرب ، حيث وقفها ووقف عليها المال الذي يكفل لها البقاء ، وما زال الانتفاع بها إلى يومنا هذا ، وكانت له مجالس علمية وأدبية مشهورة تعقد بداره أو قصره أو ذهبته في النيل ، ومشاركة ثلاثة من رجالات القرن الماضي مثل العلامة

الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، ومحمود سامي البارودي، وغيرهم كثير من الأدباء والفضلاء».

(۲)

وهذه أبيات من قصيدة الأستاذ محمد كرد على :

أهذا الدجي والصبح ما زال خافيا

أم الصبح وافي حائل للون داجيا

أقلب وجهي في الحياة فلا أرى

لذِيًّا وَكَانَ الْعِيشُ بِالْأَمْسِ زَاهِيًّا

حمامه وادی النیل راع حشاشتی

هناك إذ أرسلته اليوم شاجيا

سقى دوحك الوسمى وهنافى النا

نری غصنه المیاد أغبر داریا

نعي عبكري الشرق نمير فاغندي

معاه قلب الشرق كالقرح داميا

حنانیك عز العلم والمجد والهدى

فقد كان علاماً مجيداً وهادياً

ترحل بالتقوى وأبقى وراءه

ثناء كنفح المسك يسطع ذاكيا

رعي الله قبل رعي روضة

تَبَوَّأْهَا مَنْ كَانَ لِلْعَهْدِ رَاعِيَا

(۲۷)

ومن مقدمة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجتمع اللغة العربية بدمشق نقل قوله :

«كان عظيماً من عظماء العصر، جمع إلى العلم والمعرفة الخلق الكريم، والمسجيات الحميدة، والتواضع المحبب، وكان يسرع إلى تلبية من يطلب عنده، ويقدم بالرضا والارتياح من المصادر والرجوع النادرة، ما يسعف الباحثين والدارسين ليؤدوا للغربية

وعلوّمها خير ما عندهم، فتعلقت القلوب بحبه، وأجله إخوانه وأصدقاؤه، وأحلوا بهم المكانة الرفيعة، وكما فارق دنيانا إلى الخلود أحسن عارفوه جسامة ما نزل به، وتتابعوا يتحدثون عنه، ويعددون مناقبه ومآثره في مقالاتهم وخطبهم إكبّاراً له، وتقديرًا للمتردلة التي كان له في نفوسهم.

«وإنّي لآمل وقد نهض الأستاذ العجمي بعمله على خير وجه أن يجعله توطئة وتمهيداً لعمل ثان يكمل الأول، هو دراسة آثار الرجل العظيم بعد أن طبع أكثرها، وصارت في متناول الطالبين، لتتجلى صورته واضحة القسمات، بينة السمات، تفصح عن صاحبها بأجل بيّان، وتكشف عنها قام به في سبيل العربية وازدهارها».

(٤)

ونأتي الآن إلى ما وعدنا به القارئ من حديث موجز عن خزانته العامرة التي كانت تضم أكثر من عشرين ألف مجلد عربي، ما بين مطبوع وخطوط. كما كانت تضم من المصادر الإنجليزية والفرنسية، ما يتصل بآداب العربية.

وقد استنسخ لها بالصور الفوتوغرافية من نفائس مكتبات أثينا وروما والأستانة وبارييس والفاتيكان كثيراً من ذخائرها العربية.

ولما ذهب تيمور باشا لأداء فريضة الحج سنة ١٣١٢ شاهد بالمدينة المنورة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت هام بها تحويله من نوادر المؤلفات وغرائب المخطوطات، فنسخ صورة من فهرسها الجامع، وأخذ يبحث عنها تضمنته من مجلدات.

وعندما أراد الشيخ طاهر الجزائري الحق الكبير أن يتصرف في مكتبه بالبيع بعد احتلال فرنسا للشام، رأى أن يقدمها لأحمد تيمور بدلاً من أن تذهب للأجانب.

(٥)

أجمع من كتبوا عن تيمور أنه كان منقطعاً لمكتبه التي كانت أغنى مكتبة في مصر بعد دار الكتب والأزهرية، وأنه كان يسعى كل حين إلى ما يضمه إليها، وصارت الكتب تسعى إليه.

وقد حفلت هوامش مقتنياته بتعليقاته فكان في المعاجم يعلق على هوامشها بما عن له، كما فعل مع لسان العرب، والقاموس المحيط، وكان في غيرها كلما مر على معلومة يراها

تستحق التدوين، دونها منسوبة إلى مصدرها في كراس منفصل عن الكتاب. ولما كانت هذه المعلومات ذات موضوعات شتى فقد أثر أن يخصص معلومات كل موضوع «كراسة» خاصة بها حتى لا تختلط المعلومات ويتغدر العثور عليها، وقد ذكر أسماء كثير من هذه الكراسيس في معجم العاميات.

نصح تيمور باشا في أن يحيط بمقتنيات مكتبه إمام المدقق الباحث، وكان يدون بخطه على أغلب خطوطات مكتبه ما يفيد اطلاعه عليها، ويسجل على أول المخطوطات بخطه «قرأناه»، وهكذا كان حريصاً على قراءة المؤلفات بمكتبه قراءة واعية، ودراستها دراسة دقيقة، والتعليق عليها، حيث كان يدرس التراث ويصنفه ويصححه أو يوضحه إن لزم الأمر، ومن شدة عنايته بخزانته أنه قام بنفسه بعمل فهارس وافية لها في سجلات خاصة مبوية تبوياً دقيقاً.

(٢٦)

وكان لتيمور مساعدون ينسخون له أندرا الكتب في الطب واللغة والتاريخ من الشام والعراق والجaz واليمن والمغرب، كما نسخ هو نفسه عدداً من نفائس المخطوطات بخط يده. وقد بدأت المكتبة في درب سعادة بالقاهرة، ثم نقلها إلى عزبته في قويتنا بمحافظة المنوفية، وهي إحدى مزارعه التي كان يؤثرها على غيرها، لذا جاؤ إليها عندما ضاقت به العاصمة بسبب ضوضاء المدينة، وبعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده الذي كان يسكن بجواره، قرر الرحيل إلى مزرعته ورأى أن ينقل معه مكتبه إلى قويتنا ورتبتها في خزانتها حيث كان يرجع إليها ليقرأ ويكتب، وقضى محمد كرد على والشيخ طاهر الجزائري في ضيافته بضعة أيام يقرأ عليهم أسماء الكتب، وقام محمد كرد على بوصفها في المقتبس (عام ١٩١٢)، إلا أنها أشاراً عليه بنقل الخزانة من قويتنا، خوفاً من تعرضها للحرق، إذ أنها ملاصقة لبيوت الفلاحين الذين يضعون الخوص والعيدان على أسطح بيوتهم، فإذا اشتعلت النيران انتقلت من بيت إلى بيت فتحرق البيوت.

ومنذ بدأ في جمع مكتبه لم يدخل على باحث من الشرق أو الغرب إلا أعاره ما أراد من كتب وخطوطات إذا تأكد أنه سيستفيد منها.

وقد أثني المستشرق د. ماكس مايرهوف على مكتبه ودورها العظيم ووصفها بأنها

«مكتبة نادرة الوجود»، تعد من أتم وأفخر المكاتب المرتبة.

وقال المعلوم عن هذه المكتبة: «هي أكبر خزانة في مصر بعد داري الكتب السلطانية والأزهرية ، ولكن ما فيها من النفائس قد لا يوجد فيها».

وقد أهدي أحمد تيمور باشا دار الكتب المصرية ١٨٠٠٠ مجلد تضم أمهات نادرة لخلاصة الكتب المصرية عبر العصور، وأهدي جمع دمشق العلمي ٤١٨ قطعة نقود أثرية، و٣٤ ختماً حكومياً يرمي إلى كافة العصور التي مرت بها الحضارة الإسلامية.

(٢٧)

عقب وفاته شكلت لجنة برئاسة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد باشا ، لنشر المؤلفات التيمورية وقد عنيت هذه اللجنة بنشر أعماله التي لم تنشر من قبل، مثل: تصحيح لسان العرب، أسرار العربية، معجم الفوائد، الكتابات العامية، الحب والجمال عند العرب، تصحيح القاموس المحيط، أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، الأمثال العامية... .

ومن حين لآخر يتجدد الحديث عن فضل أحمد تيمور ، وقد حدث هذا كثيراً ، وبخاصة عندما ينشر كتاب من كتبه في طبعة حديثة فينبره الذين لم يطلعوا عليه من قبل . كذلك فإن الحديث عن فضله وفضل الأسرة التيمورية تجدد في السنوات الأخيرة وبصفة دورية كل عام مع الجهود التي بذلتها السيدة رشيدة تيمور حفيدة ابنه محمد التي نظمت احتفاليات دورية بجدها ومسابقات سنوية لتشجيع شباب المسرحين كما أعادت نشر أعمال جدها الرائدة ، وهي جهود دعوية لفت النظر إلى دور متميز لعائلة ارستقراطية راقية محية لل الفكر والفن والأدب ، وما أنمراه هذا الدور المكثف والمعطاء من نفع لثقافتنا العربية انتاجاً وارتقاء .



٧	هذا الكتاب
الباب الأول	
رمزان للطليعة : الأستاذ وأستاذه	
الفصل الأول	
١٦	الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥)
الفصل الثاني	
٢٤	رفاعة الطهطاوي ١٨٧٣ - ١٨٠١
الباب الثاني	
رمزان للرعاية : الوزير وخلفه	
الفصل الثالث	
٣٦	علي مبارك باشا (١٨٢٤ - ١٨٩٣)
الفصل الرابع	
٤٥	عبد الله فكري باشا (١٨٣٤ - ١٨٩٠)
الباب الثالث	
نموذجان للموسوعيين : فرسا الرهان	
الفصل الخامس	
٨٠	أحمد زكي باشا شيخ العروبة ١٩٣٤ - ١٨٦٧
الفصل السادس	
٩٣	أحمد تيمور باشا ١٩٣٠ - ١٨٧١
